البحـث الرابـع

صُوَر من آليات التفكير المنهجي
في ضوء السنة النبوية
قراءة في السياق الاجتماعي

إعـــداد

أ.م/ محمود بطل محمد أحمد

الأستاذ المساعد بقسم الثقافة الإسلامية

كلية الدعوة الإسـلامية بالقاهرة

جامعـــة الأزهـــر

صور من آليات التفكير المنهجي في ضوء السنة النبوية
قراءة في السياق الاجتماعي

محمود بطل محمد أحمد

قسم الثقافة الإسلامية كلية الدعوة الإسلامية، جامعة الأزهر بالقاهرة، مصر.

البريد الالكتروني: mahmoudahmed.١٣@azhar.edu.eg

الملخـــص:

يهدف هذا البحث إلى إبراز السياق الاجتماعي للآليات المتنوعة للتكوين الفكري المنهجي في ضوء السنة النبوية، وتوضيح المردود الاجتماعي لها، وكذلك الكشف عن دلائل الاتساق المنهجي بين البنائين الفكري والاجتماعي في الإسلام، وبيان محورية البناء المعرفي في الإصلاح الاجتماعي، واعتمدت في هذا البحث على منهجين هما: المنهج الاستقرائي، والذي تتبعت من خلاله آليات التكوين الفكري من خلال السنة النبوية، والمنهج التحليلي والذي توصلت من خلاله للتدليل على العلاقة المتجذرة بين الإصلاحين الفكري والاجتماعي في السنة النبوية، ومن النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث أنه كان من مفردات البناء العقلي الذي أسسه المنهج المعرفي النبوي التنبيه إلى قضية محورية وهي مراعاة الأولويات، والتنبه إلى مقادير الأشياء والوزن النسبي لكل أمر من الأمور حتى تصاغ عقلية تدرك مراتب الأهمية، فتقع التصرفات الاجتماعية وفقًا لهذا الأساس المعرفي. وأن من بين صور مراعاة الأولويات جعلها آلية من آليات تضييق هوة الخلاف الاجتماعي، وسلوك مسلك مضاد لنوازع النفس الإنسانية الجانحة، كما توصلت إلى أن الوعي بسلم الأولويات في المجال الاجتماعي يراعي الطبيعة البشرية، ويعد أداة من أدوات التعاطي الإيجابي معها، ومن نتائج البحث كذلك أن التفكر في المآلات نوع من إعمال الملكة العقلية في تدبر الأفعال وما تسفر عنه وآلية محورية من آليات الوقاية الاجتماعية عامة والأسرية خاصة، كما أن من نتائجه

أيضًا أن إيضاح المعايير الصحيحة كان إحدى مسارات التقويم النبوي للمجال الاجتماعي حتى كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخذ من الحوار وسيلة لتأسيس المعيارية الحقة وإبطال المعايير المتوهمة، وأن من أعظم وظائف القوة العاقلة قدرتها على التمييز بين الأشياء، وإدراك الفوارق بين الأمور والتوصل إلى حقائق الأشياء، والنظر في بواطن الأمور والنفاذ إلى أسرارها، ويوصي البحث بالقيام بمزيد من الدراسات التي تأخذ على عاتقها استنباط الدلالات الاجتماعية من السنة النبوية، كما يوصي بالتواصل المعرفي بين تخصصي الدراسات الشرعية والدراسات الاجتماعية والإنسانية، وأيضا إبراز الدلالات الاجتماعية في السنة النبوية من خلال المؤتمرات العلمية والورش والندوات والمناهج الدراسية في الأزهر الشريف.

الكلمات المفتاحية: التفكير، المنهج، السنة النبوية، السياق الاجتماعي.

Images of Systematic Thinking Mechanisms in Light of the Prophetic Sunnah
A Reading in the Social Context

Mahmoud Batal Muhammad Ahmad
Department of Islamic Culture, Faculty of Islamic Propagation, Al-Azhar University, Cairo, Egypt.
E-mail: mahmoudahmed.١٣@azhar.edu.eg

Abstract;

This research aims to highlight the social context of the various mechanisms of systematic intellectual formation in light of the Prophetic Sunnah and to clarify their social impac, And also to reveal the evidence of methodological consistency between the intellectual and social structures in Islam, and to demonstrate the centrality of the cognitive structure in social reform. In this research, I relied on two methods: the inductive method, through which I traced the mechanisms of intellectual formation through the Prophetic Sunnah, and the analytical method, through which I arrived at evidence of the deep-rooted relationship between the intellectual and social reforms in the Prophetic Sunnah, Among the results I have reached through this research is that one of the components of the mental structure established by the prophetic cognitive approach was to draw attention to a pivotal issue, which is to consider priorities, and to be aware of the magnitude of things and the relative weight of each matter, so that a mentality is formulated that understands the ranks of importance, and social behaviors occur in accordance with this cognitive basis. And that among the forms of consideration of priorities is to make it a mechanism for narrowing the gap of social disagreement, And adopting a course of action that is contrary to the deviant tendencies of the human soul, as I concluded that awareness of the

scale of priorities in the social field takes into account human nature, and is a tool for positive interaction with it. Among the research results is that thinking about consequences is a type of application of the mental faculty in contemplating actions and their results and a pivotal mechanism of social prevention in general and family prevention in particular, Another of its results is that clarifying the correct standards was one of the paths of the prophetic evaluation of the social field, so that the Prophet, may God bless him and grant him peace, used dialogue as a means to establish the true standard and invalidate the imaginary standards, and that one of the greatest functions of the rational faculty is its ability to distinguish between things, perceive the differences between matters, arrive at the truths of things, look into the inner aspects of matters and penetrate their secrets, The study recommends further studies that explore the social implications of the Prophetic Sunnah. It also recommends intellectual communication between the disciplines of Sharia studies and social and human studies, as well as highlighting the social implications of the Prophetic Sunnah through academic conferences, workshops, seminars, and curricula at Al-Azhar Al-Sharif.

Keywords: Thinking, Methodology, Sunnah, Social context.

مقــدمـة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد،

فإننا حين نتأمل التاريخ الاجتماعي ندرك العلاقة المتجذرة بين البنى الفكرية ووقائع هذا التاريخ، فلا يمكن النظر إلى منظومات الأفكار الإنسانية على أنها كانت مجرد أنشطة عقلية لم يتعد أثرها إلى المحيط الخارجي، بل يتحتم الوعي بأنها قد أنتجت أنماطًا متعددة من السلوك البشري، وأفرزت قوالب متمايزة من أشكال العلاقات الإنسانية.

والوحي الإلهي من الكتاب والسنة قد بيَّن خطوط هذه العلاقة، سواء أكان ذلك في إطارها الإيجابي أم السلبي حتى وجدنا اقترانًا بين المفاهيم المعرفية من التفكر والتدبر والتبصر والتذكر والمفاهيم الاجتماعية، مما يحتم على الباحثين في هداية هذا الوحي الالتفات إلى هذه العلاقة، وعدم الكف عن بيان ما يمكن بيانه من خطوطها.

إن النبي ﷺ حين بُعث كان الخلل الفكري متجذرًا في البيئة العربية بل وفي الإنسانية، ولا نقصد بالخلل الفكري مجرد تراجع المستوى المعرفي العام، بل كان هناك قصور في كل من تصور الأشياء وإدراك العلاقات بينها ومنهجية الاستدلال عليها مما جعل الهداية المعرفية وتأسيس آليات منهجية للتفكير إحدى أعظم الهدايات النبوية؛ وذلك لارتباطها بالملكة الإنسانية الكبرى وهي الملكة العقلية، وإذا كانت هناك آثار لهذه الهداية الفكرية فإن من بين أعظم هذه الآثار الأثر الاجتماعي حيث العلاقة المتشابكة بين السلوك الإنساني وما يقبع خلفه من أنساق فكرية تجعل من مفردات الحياة الاجتماعية نتائج للبنى الفكرية التي يستحضرها الإنسان.

إن المآسي الاجتماعية التي شاعت قبل الإسلام لم تكن تصرفات فردية ناتجة عن جنوح مؤقت وتنكر استثنائي لمقتضيات التفكير المنهجي الرائجة في المجتمع، بل كانت نتاجًا عاما لخلل معرفي استوعب القضايا الكبرى قبل أن تنضوي تحته القضايا الصغرى،

وكان سلوك مسلك سوي هو الاستثناء؛ لذا ظلت كتب السيرة تذكر أسماء أصحابه تذكيرًا بكون سهولة إحصائهم يعطي دلالة على ذلك.

لذا، فإن أي مفردة من مفردات الهداية المعرفية التي أسسها النبي ﷺ كانت كذلك هداية اجتماعية، بل يمكن القول بأن الميدان الحقيقي لترجمة الوعي بهذه المفردة كان هو المحيط الاجتماعي، خاصة وأن المنهجية المعرفية التي أسسها الهدي النبوي لم تأت في صورة نزعة من النزعات العقلية التي تقاسمت التاريخ الفلسفي والتي ابتدأت بإطار تأملي ذاتي، ثم اكتسبت تأثيرها بامتداد إطاريها الزماني والمكاني، بل إنها نبعت من وحي إلهي هاد للإنسانية هداية عامة، وتشكلت من خلال آليات تفاعلية من التوجيه والإقناع.

لقد اتسم البيان النبوي لآليات هذه الهداية بأنه بيان متفاعل مع وقائع الحياة الاجتماعية، ويأتي هذا البحث كمحاولة لإبراز صور من المردود الاجتماعي لتبني آليات التفكير المنهجي في ضوء السنة النبوية؛ لندلل من خلال ذلك على تجذر الارتباط بين السياقين الفكري والاجتماعي في الهدي النبوي.

أسباب اختيار موضوع البحث:

١- الحاجة الملحة إلى الدراسات التي تبحث في الآليات المنهجية التي أصلها الوحي الإلهي.

٢- كونه يمثل مجالًا من المجالات التي تظهر فيها خاصية تكامل الثقافة الإسلامية.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى ما يلي:

١- بيان أهمية القراءة الاجتماعية للسنة النبوية.

٢- إبراز الآليات المتنوعة للتكوين الفكري المنهجي في ضوء السنة النبوية.

٣ - توضيح المردود الاجتماعي لمفردات التكوين الفكري في ضوء السنة النبوية.

٤- الكشف عن دلائل الاتساق المنهجي بين البنائين الفكري والاجتماعي في الإسلام.

٥- بيان محورية البناء المعرفي في الإصلاح الاجتماعي.

مشكلة البحث

تتمثل إشكالية البحث في التوصل إلى كنه العلاقة بين المكونين الفكري والاجتماعي في الإسلام؟ خاصة وأن الناظر إلى هذه القضية في الواقع الفكري المعاصر يجد أمامه منحيين فيها:

الأول: منحى يتعاطى مع المفردات الفكرية في الإسلام بمعالجة فكرية مجردة أي باعتبارها مجرد نسق معرفي مجرد، وبالرغم من أن هذا المنحى يهدف إلى الكشف عن دلائل القوة الذاتية للمكون الفكري في الإسلام إلا أن عدم ربطه بالمردود الإنساني والاجتماعي يباعد بينه وبين سمة الواقعية التي هي من السمات المنهجية للثقافة الإسلامية.

وأما الثاني: فهو منحى يتعاطى مع مفردات الحياة الاجتماعية التي تحدث عنها الإسلام بنظرة تجزيئية منقطعة الصلة عن بواعثها ومنطلقاتها، ومن هنا يبرز الإصلاح الاجتماعي في الإسلام إصلاحًا منعزلًا عن البنية العامة للإصلاح في الإسلام.

إن هذا البحث يحاول أن يدلل على عمق العلاقة بين الإصلاحين الفكري والاجتماعي في ضوء السنة النبوية، ويذكر صورًا تكشف عن تجذر العلاقة بينهما.

الدراسات السابقة

تطرقت العديد من الدراسات إلى قضية التفكير في الإسلام عمومًا وفي الحديث النبوي خصوصًا، ولكن لم تركز أي منها على النقطة المحورية في دراستي، وهي السياق الاجتماعي لمنهجية التفكير والعلاقة المتجذرة بين الإصلاحين الفكري والاجتماعي، ومحورية البناء المعرفي في الإصلاح الاجتماعي، ومن الدراسات السابقة ما يلي:

الدراسة الأولى: دراسة بعنوان: (منهج التفكير في الحديث النبوي جمعاً وتصنيفاً ودراسة)، من إعداد شفاء علي حسن، الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا ٢٠٠٤م. رسالة ماجستير.

وهذه البحث جاء في عدة فصول، وهي تحرير التفكير الإنساني من المعيقات، والمنهج النبوي في التثبت وإقامة الدليل، وموضوعية المنهج النبوي في التفكير وواقعيته.

الفرق بين هذا الدراسة ودراستي

* تطرقت في بحثي إلى منهجيات في التفكير لم تتطرق إليها الدراسة السابقة مثل العقلية المعيارية، والعقلية المميزة، وغيرها.

* قمت بدراسة هذه الآليات المنهجية في التفكير في السياق الاجتماعي مما يجعلها تأتي في الدراسات البينية لكل من الثقافة الإسلامية وعلم الاجتماع.

الدراسة الثانية: دراسة بعنوان (التفكير الإيجابي في ضوء السنة النبوية)، من إعداد: د/ سعيد صالح الرقيب، دار ابن الجوزي ٢٠١٦م.

تحدث فيه عن أهمية التفكير الإيجابي، وثمراته، وأسسه، وتطبيقاته مثل بناء الهوية الإيجابية للذات، وأثر الأسماء والصفات الإيجابية على الذات، والتوقع الإيجابي للأمور، ومحبة الآخرين، والتعامل بإيجابية مع أخطائهم واحترامهم.

الفرق بين هذه الدراسة ودراستي

ذكرت في بحثي آليات منهجية للتفكير وليس فقط التفكير الإيجابي الذي تركزت عليه الدراسة السابقة المذكورة؛ لذا فالنقطة المحورية لبحثي قراءة من منظور السياق الاجتماعي لصور من الآليات المنهجية للتفكير.

الدراسة الثالثة: دراسة بعنوان (التفكير المنهجي في ضوء السنة النبوية دراسة تأصيلية)، من إعداد: أنسام عالم إسماعيل عالم، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين (٢٠٢٢م).

تحدثت فيها الباحثة عن مفهوم التفكير المنهجي، ومكانته في السنة النبوية، وأصوله وأهدافه، ومعيقاته.

الفرق بين دراستي وهذه الدراسة

كما يظهر من عنوان الدراسة السابقة أنها ذات منحى تأصيلي، بينما أتت دراستي

لتسليط الضوء على قضية معينة وهي السياق الاجتماعي للآليات الفكرية في ضوء السنة النبوية، والتدليل على عمق العلاقة المتجذرة بين الإصلاحين الفكري والاجتماعي؛ وبيان محورية البناء المعرفي في الإصلاح الاجتماعي؛ لذا قمت بذكر الآليات المنهجية للتفكير كنماذج للتدليل على هذه العلاقة، وسار البحث في اتجاه اجتماعي من أوله إلى آخره؛ لتكون دراستي هذه ضمن الدراسات التي تربط بين مجالي الثقافة الإسلامية وأصولها من الوحي الإلهي كتابًا وسنة وبين النظام الاجتماعي في الإسلام؛ لأدلل من خلال ذلك على أن هناك زادًا اجتماعيا عظيمًا في السنة النبوية، وأنه لا ينبغي أن يؤخذ كإطار منفصل عن الجوانب الأخرى في الإسلام.

منهج البحث:

اعتمدت في هذا البحث على منهجين هما: المنهج الاستقرائي، والذي تتبعت من خلاله آليات التكوين الفكري من خلال السنة النبوية، والمنهج التحليلي والذي توصلت من خلاله للتدليل على العلاقة المتجذرة بين الإصلاحين الفكري والاجتماعي في السنة النبوية.

خطــة البحث: أتى هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، وخمسة مطالب على النحو التالي:

المقدمة: وبينت فيها أهمية الموضوع، وأهداف البحث، ومشكلته، والدراسات السابقة له، ومنهجه، وخطته.

التمهيد: التعريف بالمفردات الرئيسة في البحث.

المطلب الأول: السياق الاجتماعي للوعي بالأولويات والوزن النسبي للأشياء

المطلب الثاني: السياق الاجتماعي لتدبر المآلات

المطلب الثالث: السياق الاجتماعي لتشكيل العقلية المعيارية

المطلب الرابع: السياق الاجتماعي لتشكيل العقلية المميِّزة.

المطلب الخامس: السياق الاجتماعي للوعي بحقائق الأشياء وأصولها الجامعة.

الخاتمة: وذكرت فيها النتائج والتوصيات

التمهـــيد

أولا: مفهوم التفكير المنهجي

التفكير المنهجي مركب وصفي؛ لذا لا بد أولًا من تصور جزئيه لنصل إلى تصوره.

فأما التفكير فهو مصدر فكر، وقد جاء في مقاييس اللغة: " الْفَاءُ وَالْكَافُ وَالرَّاءُ تَرَدُّدُ الْقَلْبِ فِي الشَّيْءِ. يُقَالُ تَفَكَّرَ إِذَا رَدَّدَ قَلْبَهُ مُعْتَبِرًا. وَرَجُلٌ فِكِّيرٌ: كَثِيرُ الْفِكْرِ."(١)

وأما الفكر اصطلاحًا، فقد عُرِّفَ بأنه: "ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى مجهول."(٢)

وشرح القطب الرازي هذا التعريف قائلًا: "الفكر ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى المجهول، كما إذا حاولنا تحصيل معرفة الإنسان، وقد عرفنا الحيوان والناطق رتبناهما بأن قدمنا الحيوان وأخرنا الناطق حتى يتأدى الذهن منه إلى تصور الإنسان، وكما إذا أردنا التصديق بأن العالم حادث، ووسطنا المتغير بين طرفي المطلوب، وحكمنا بأن العالم متغير وكل متغير حادث، فحصل لنا التصديق بحدوث العالم.

والمراد بالترتيب جعل الأشياء بحيث يُطلق عليها اسم الواحد، ويكون لبعضها نسبة إلى البعض الآخر بالتقدم والتأخر.

والمراد بالأمور المعلومة: الأمور الحاصلة صورها عند العقل، وهي تتناول التصورية والتصديقية من اليقينيات والظنيات والجهليات، فإن الفكر كما يجري في التصورات يجري أيضًا في التصديقات، وكما يكون في اليقيني يكون أيضًا في الظني والجهلي.(٣)

---

(١) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، اعتنى به: محمد عوض، فاطمة محمد، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١م، ط١، صـ٧٩٦

(٢) التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، تحقيق: ضبطه وصححه مجموعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ١٩٨٣م، ط١ صـ١٦٨

(٣) تحرير القواعد المنطقية، قطب الدين محمد بن محمد الرازي، بتصرف، منشورات بيدار، سنة ١٤٢٦هـ، ط٢ صـ٥٤

ومن تعريفاته كذلك أنه: الانتقال من المطالب إلى المبادئ ورجوعها من المبادئ إلى المطالب(١)

تحليل لما سبق

إن تعريف الفكر وضع أيدنا على العديد من الدلائل، ومنها ما يلي:

١- أن الفكر يستوجب نشاطًا للملكة العقلية، وخروجها من الإطار السكوني إلى إطار تفاعلي مع المعلومات المخزونة.

٢- أن التفكير ليس عبثًا، بل هو لغاية تتمثل في التوصل إلى الأمور المجهولة سواء أكانت تصورات مجهولة أم تصديقات مجهولة.

٣- أن التفكير ليس ذا دائرة واحدة وإنما يتحرك في دوائر عدة من اليقينيات والظنيات بل والجهليات.

وأما المنهجي فهو نسبة إلى المنهج، والمنهج لغة يدور معناه حول الطريق الواضح، وقد ذكر ابن فارس أن لهذه الكلمة أصلين متباينين، ولكن ما يهمنا هو قوله: " النَّهْجُ، الطَّرِيقُ. وَنَهَجَ لِي الْأَمْرَ: أَوْضَحَهُ. وَهُوَ مُسْتَقِيمُ الْمِنْهَاجِ. وَالْمَنْهَجُ: الطَّرِيقُ أَيْضًا، وَالْجَمْعُ الْمَنَاهِجُ"(٢)

وجاء في لسان العرب: "طُرُقٌ نَهْجَةٌ، وسبيلٌ مَنْهَجٌ: كَنَهْجٍ. ومَنْهَجُ الطريقِ: وضَحُه. والمِنهاجُ: كالمَنْهَجِ"(٣)

---

(١) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، صـ١٧

(٢) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، اعتنى به: محمد عوض، فاطمة محمد، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١م، ط١، صـ٩٦٤

(٣) لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ، ط٣، جـ٢، صـ٣٨٣

وأما المنهج اصطلاحًا فقد عرف بأنه: عدة خطوات تبدأ بملاحظة الظواهر، وإجراء التجارب، ثم وضع الفروض التي تحدد نوع الحقائق التي ينبغي أن يبحث عنها، وتنتهي بمحاولة التحقق من صدق الفروض أو بطلانها توصلًا إلى وضع قوانين عامة تربط بين الظواهر، وتوجد العلاقات بينها"(١)

وهو أيضا: خطة منظمة لعدة عمليات ذهنية أو حسية بغية الوصول إلى كشف حقيقة أو البرهنة عليها.(٢)

مما سبق يمكن تعريف التفكير المنهجي بأنه ترتيب أمور معلومة للتوصل إلى أمور مجهولة من خلال خطوات واضحة منضبطة.

ثانيا: مفهوم السياق الاجتماعي

أما السياق فمن تعريفاته أنه: "مجموع ما يحيط بالنص من عناصر مقالية ومقامية توضح المراد وتبين المقصود."(٣)

ومن تعريفاته أنه: "الغرض الذي تتابع الكلام لأجله مدلولًا عليه بلفظ المتكلم، أو حاله أو أحوال الكلام أو المتكلم فيه أو السامع."(٤)

والمراد بالاجتماعي: " كل ما يتعلق بالعلاقات المتبادلة بين الأفراد أو الجماعات، ويوجد العامل الاجتماعي إذا تأثر السلوك حتى لو كان متعلقًا بفرد واحد بشخص آخر أو بجماعة سواء كان هذا الشخص أو هؤلاء الأشخاص موجودين من الناحية المادية

(١) معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، أحمد زكي بدوي، مكتبة لبنان، بيروت، صـ٢٦٧

(٢) المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٨٣م، صـ١٩٥

(٣) دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى عليه السلام، دراسة نظرية تطبيقية، فهد بن شنوي، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ٢٠٠٥م، نقلًا عن: أثر السياق في فهم النص عند الإمام ابن دقيق العيد في شرح العمدة، عراك جبر شلال، مجلة الدراسات التربوية والعلمية، كلية التربية، الجامعة العراقية، العدد السابع، ٢٠٢٦م، صـ٦٣

(٤) المرجع السابق، صـ٦٣

أو غير موجودين"[١]

إن دراسة هذا العامل الاجتماعي ورؤية مدى التغير الذي أصاب المجتمعات الإنسانية قد كان المعيار الذي صيغت من خلاله النظريات الاجتماعية حتى تكوَّن تاريخ هذا العلم.

"علم الاجتماع قد انشغل منذ نشأته بقضية التغير الاجتماعي، وكانت نظريات علم الاجتماع هي النتاج المعرفي الذي أفرزه تاريخ العلم لرصد حركة تغير المجتمعات وتحولها."[٢]

ويمكن تعريف السياق الاجتماعي بأنه: "مجموعة الظروف الاجتماعية الممكن أخذها بعين الاعتبار لدراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي والسلوك اللغوي"[٣]

إن المراد في هذا البحث هو أن نقرأ آليات التفكير المنهجي التي أسسها الهدي النبوي في سياق القضايا الاجتماعية المتنوعة، وعلاقات التأثير والتأثر بين الأفراد؛ وذلك لإعطاء نماذج كاشفة عن عمق العلاقة بين الإطارين الفكري والاجتماعي.

(١) معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، أحمد زكي بدوي، صـ ٣٨٠ (مرجع سابق)

(٢) التغير الاجتماعي، أحمد زايد، اعتماد علام، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠م، ط٢، صـ٨

(٣) مسعود بودوخه، اجتماعية الكتابة بين التخييل والتأويل، مجلة الأثر، مجلد١١، عدد١٦، لسنة ٢٠١٢، نقلا عن: السياق الاجتماعي وأهميته في فهم النص القرآني وتوجيه دلالاته، حبيبة زغلامي، عبد الناصر بوعلي، مجلة الموروث، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان الجزائر، المجلد التاسع، العدد الثاني، ديسمبر (٢٠٢١م)، صـ١٢٦

المطلب الأول
السياق الاجتماعي للوعي بالأولويات والوزن النسبي للأشياء

لقد كان من مفردات البناء العقلي الذي أسسه المنهج المعرفي النبوي التنبيه إلى قضية محورية وهي مراعاة الأولويات، والتنبه إلى مقادير الأشياء والوزن النسبي لكل أمر من الأمور، حتى تُصاغ عقلية تدرك مراتب الأهمية ودرجات التفاضل، فتقع التصرفات الإنسانية وفقًا لهذا الأساس المعرفي.

إن الوعي بالأولويات وإيقاع التصرفات الإنسانية وفقًا لهذا الوعي يعد إحدى الآليات التي تنتقل فيها المعرفة الإنسانية إلى إطارها التطبيقي؛ لذا فنحن حين نستحضر نعي الإسلام على التقليد، فلا بد أن نستحضر أن من حكم ذلك تعطيله للملكة العقلية في رؤية الأولويات والتدبر في مراتب الأشياء، فالمقلد يوقع تصرفه محاكاة لتصرف من يقلده ووفقًا لأوليات من يقلده، فمع استمرار هذا النهج التقليدي تضمر الملكة العقلية وتضحي التصرفات الإنسانية أقرب إلى الآلية.

وحين نستقرئ التصرفات التي كان يفعلها العرب قبل الإسلام، واستحقت أن تذكر ضمن مفردات المنحى السلبي الذي جاء الإسلام لتقويمه ندرك أنه كان هناك خلل حقيقي في الوعي بالأولويات وما يستحق منها أن يقدم وما يستحق أن يؤخر مما أحدث خارطة عشوائية لهذه التصرفات، ولو أردنا مثالًا على ذلك فيمكن أن نأخذ قضية وأد البنات، فمع أن هذه المفسدة الاجتماعية تتشابك فيها أوجه الخلل العقدي والفكري إلا أنه لا يمكن أن نغفل أن من العلل الظاهرة لها غياب الوعي بالأولويات، فالحفاظ على الولد من الناحية النفسية والاجتماعية يأتي في أولويات الأمور لدى أصحاب الملكة العقلية الرشيدة، ومع ذلك قدمت عليه اعتبارات أخرى لا يمكن تصنيفها في نفس الإطار كالرغبة في الافتخار والخوف من الفقر؛ لذلك لا ينبغي أن نتعجب من تأكيد الوحي الإلهي على القضايا الفطرية لأننا يجب أن نستحضر السياق الاجتماعي الذي ينبئنا

عن تشوش الوعي بهذه القضايا لدى العقلية العربية قبل الإسلام.

وقد أشار الرازي إلى هذه المفردة المنهجية المعرفية أعني مراعاة الأولويات في قوله: "الإنسان إذا علم أمرين أحدهما أهم من الآخر، فإن اشتغل بالأهم كان عمله موافقًا لعلمه وكان حكمة، وإن أُهمِل الأهم كان مخالفًا للعلم ولم يكن من الحكمة في شيء"(١).

لقد كشف الرازي أن هناك علاقة متجذرة بين كل من المعرفة والسلوك الإنساني، وأنه إذا كان من صور المعرفة الإنسانية التنبه لمراتب الأشياء ومعرفة الأهم والمهم، فإن انسجام السلوك الإنساني الذي عبر عنه الرازي بالاشتغال مع هذه المعرفة الإنسانية يمكن تصنيفه ضمن الإطار الحِكمي العام، مما يعني أن الإنسان إذا اشتغل بالأمور اشتغالًا اختلت معه هذه الاوزان النسبية خرج بذلك عن مضمون الحكمة.

والمتأمل للنصوص المبيّنة لأحوال الرسل عليهم السلام مع أقوامهم ومنهجهم الدعوي يجد أن هذه المفردة الفكرية كانت مبدأ راسخًا من مبادئ دعوتهم لأقوامهم

" واعلم أنا بينا أن الأنبياء عليهم السلام يشرعون في أول الأمر بالدعوة إلى التوحيد، فلهذا قال شعيب عليه السلام: ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [الأعراف: ٨٥] ثم إنهم بعد الدعوة إلى التوحيد يشرعون في الأهم ثم الأهم."(٢)

وحين كانت هذه المفردة جلية لدى رواد المنهج المعرفي الإسلامي فإنهم جعلوها وجهًا من أوجه دفع الإشكال المتوهم في المنهج النبوي؛ حيث بينوا أن طرد الفقراء المنهي عنه ليس أقل ضررًا في رؤية العقل الحكيم من عدم طردهم.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ

(١) تفسير الرازي (مفاتيح العيب أو التفسير الكبير)، أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ، ط٣، جـ٢٥ صـ١١٩

(٢) تفسير الرازي جـ١٨صـ٣٨٤ (مرجع سابق)

حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأنعام:٥٢]

يقول الرازي: "فإن قيل: أليس أن العقل يقتضي ترجيح الأهم على المهم، فطرد أولئك الفقراء لا يوجب إلا سقوط حرمتهم وهذا ضرر قليل. أما عدم طردهم فإنه يوجب بقاء الكفار على الكفر، وهذا ضرر عظيم، قلنا: أما عدم طردهم فإنه يوجب بقاء الكفار على الكفر فمسلَّم إلا أن من ترك الإيمان لأجل الحذر من مجالسة الفقراء فإيمانه ليس بإيمان بل هو نفاق قبيح، فوجب على العاقل أن لا يلتفت إلى إيمان من هذا حاله وصفته"(١).

ونجد أن المنهج النبوي يؤصل لهذه المفردة المعرفية في بيانه لأهم القضايا وهي قضية الإيمان وشعبه؛ حيث جعل الإسلام شعب الإيمان متفاوتة لها أعلى وأدنى، فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وستون أو سبعون بابًا، أدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأرفعها قول لا إله إلا الله، والحياء شعبة من الإيمان.(٢)

وكان التوحيد أعلاها لأنه شرط في جميعها، وإماطة الأذى أدناها أي أقربها وإن لم تقع به إذاية.(٣)

إن إدخال مفردات الإيمان ضمن سلم من الدرجات يبين عمق التأسيس الذي أراده الهدي النبوي لضرورة تنبه العقلية المسلمة لهذا السلم، ونلحظ أن درجات هذا السلم لا

---

(١) تفسير الرازي جـ٢١ صـ٤٥٨

(٢) أخرجه ابن ماجه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب في الإيمان، جـ١، صـ٢٢، رقم ٥٧ (سنن ابن ماجه، ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي، والحديث أصله في البخاري)

(٣) الكوكب الوهاج، جـ٢، صـ٣٢٠ (الكوكب الوهَّاج والرَّوض البَهَّاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، محمد الأمين بن عبد الله الأُرَمي العَلَوي الهَرَري الشافعي، مراجعة: لجنة من العلماء هاشم محمد علي مهدي، مكة المكرمة، دار المنهاج، دار طوق النجاة، ٢٠٠٩م)

تنحصر في أمور اعتقادية قلبية؛ بل إنه ينضوي تحتها كذلك أفعال منخرطة في الواقع الاجتماعي مما يعيد الشكل العام للعلاقة بين الإطارين العقدي والفكري من ناحية والاجتماعي من ناحية أخرى.

وعن أنس بن مالك قال: «أقيمت الصلاة والنبي ﷺ يناجي رجلًا، فلم يزل يناجيه حتى نام أصحابه ثم جاء فصلى بهم.»(١)

لقد ذكر النووي أن من دلائل هذا الحديث إباحة الكلام بعد أن تقام الصلاة، لا سيما إذا كان ذلك في الأمور المهمة، وأن من دلائله أيضًا تقديم الأهم فالأهم حين تزدحم الأمور؛ لأنه ﷺ قد ناجى هذا الرجل بعد الإقامة في أمر من أمور الدين المهمة قد غلبت مصلحته مصلحة تقديم الصلاة.(٢)

إن هذا الحديث يبين أن النبي ﷺ لم تكن تأصيلاته لهذه المفردة المعرفية منحصرة في الجانب القولي؛ بل كان ﷺ يوظف المواقف العملية بما لها من حضور ذهني مركب.

لقد أسس الإسلام مبدأ منهجيا مفاده مراعاة الأولويات والترتيب بين الأشياء حتى صيغ ذلك في قاعدة منهجية، وهي: "لا يستطيع الوصول من ضيع الأصول"، وأعطانا الأصفهاني صورة من صور هذه القاعدة فذكر أن الإنسان لن يستكمل ما في الشرع من مكارم ما دام أنه لم يقم بالعبادات، لأن تحري العبادات باب من أبواب العدل، أما تحري المكارم فهي باب من أبواب الفضل والنفل، وتنفل من أهمل الفرض لا يقبل وكذلك تفضل من ترك العدل، فالعدل فعل ما يحب، أما التفضل فالزيادة على ما يحب، وكيف يتصور

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب الدليل على أن نوم الجالس لا ينقض الوضوء جـ١، صـ٢٨٤، رقم ٣٧٦٢٠. (صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار إحياء التراث العربي).

(٢) ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢هـ، طـ٢، جـ٤، صـ٧٦

الزيادة على شيء وهو ليس حاصلًا في ذاته؛ ولذا قيل: لا يستطع الوصول من ضيع الأصول، فالذي يشغله فرض عن فضل معذور، وأما من شغله فضل عن فرض فهو مغرور."[١]

إن مكارم الشرع التي أشار إليها الأصفهاني لا شك أنه ينطوي تحتها مفردات الإصلاح الاجتماعي، ومعنى ذلك أن الإسلام جعل من الإصلاح الذاتي بابًا للإصلاح الاجتماعي، وأقام بينهما ترتيبًا يتوافق مع طبيعة الإنسان وحياته البشرية.

ومن تلك الصور الكاشفة عن العلاقة بين الوعي بالأولويات والمجال الاجتماعي قضية الإنفاق المادي والذي يعد إشباعًا لحاجة ضرورية من الحاجات الإنسانية، فهذا الإنفاق بما له من آثار اجتماعية إيجابية حال أدائه كما ينبغي وسلبية حال التقصير في أدائه كان مجالًا من مجالات التأصيل النبوي للتنبه إلى الأولويات وإدراك مراتب الأمور ومقاديرها، ومن ذلك ما جاء عن المقدام بن معدى كرب ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة، وما أطعمت زوجك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة)[٢].

وعن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال يومًا لأصحابه: "تصدقوا"، فقال رجل: يا رسول الله، عندي دينار. قال: "أنفقه على نفسك". قال: إن عندي آخر، قال: "أنفقه على زوجتك". قال: إن عندي آخر، قال: "أنفقه على ولدك". قال: إن عندي آخر. قال:

---

(١) ينظر: الذريعة إلى مكارم الشريعة، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، صـ٣٤، دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٨٠م

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث المقدام بن معدي كرب الكندي أبي كريمة عن النبي ﷺ جـ٢٨، صـ٤١٧، رقم ١٧١٨٠، وقال المحقق إسناده صحيح. (مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١م، ط١)

"أنفقه على خادمك". قال: "إن عندي آخر". قال: "أنت أبصر"(١).

إننا لو نظرنا نظرة إجمالية لهذه النص النبوي في السياق الاجتماعي سنجد أنه تطرق إلى قضية الإحسان إلى فئات اجتماعية تختلف من حيث قربها وبعدها عن الإنسان، ومعنى هذا أن المسلم المخاطب بهذه النص حتى يقوم بمقتضى هذا التكليف النبوي لا بد من وعيه بدرجات هذا القرب والبعد مما يجعله أمام منحيين في فهم النص:

الأول: منحى معرفي، وهو التنبه إلى درجات من أمر بالإحسان إليهم، وهذا بدوره يفتح أفقه المعرفي على التنبه العام إلى مراتب الأشياء.

والثاني: منحى اجتماعي، وهو وقوع تلك الواجبات الاجتماعية وفقًا لهذا الترتيب النبوي.

قال الخطابي: "قلت هذا الترتيب إذا تأملته علمت أنه ﷺ قدم الأولى فالأولى والأقرب، وهو أنه أمره بأن يبدأ بنفسه ثم بولده؛ لأن ولده كبعضه، فإذا ضيعه هلك ولم يجد من ينوب عنه في الإنفاق عليه. ثم ثلث بالزوجة وآخرها عن درجة الولد؛ لأنه إذا لم يجد ما ينفق عليها فرق بينهما، وكان لها من يمونها من زوج أو ذي رحم تجب نفقتها عليه. ثم ذكر الخادم؛ لأنه يباع عليه إذا عجز عن نفقته فتكون النفقة على من يبتاعه ويملكه. ثم قال له فيما بعد أنت أبصر. أي إن شئت تصدقت وإن شئت أمسكت. وقياس هذا في قول من رأى أن صدقة الفطر تلزم الزوج عن الزوجة ولم يفضل من قوته أكثر من صاع أن يخرجه عن ولده دون الزوجة؛ لأن الولد مقدم الحق على الزوجة، ونفقة الأولاد إنما تجب بحق البعضية النسبية ونفقة الزوجة إنما تجب بحق المتعة العوضية،

---

(١) أخرجه ابن حبان، باب صدقة التطوع، ذكر البيان بأن الصدقة على الأقرب فالأقرب أفضل منها، على الأبعد فالأبعد جـ٨، صـ١٢٧، وقال شعيب الأرنؤوط إسناده حسن، (الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٨م)، ط١

وقد يجوز أن ينقطع ما بين الزوجين بالطلاق والنسب لا ينقطع أبدًا، ومعنى الصدقة في هذا الحديث النفقة."[1]

لقد ألمح الخطابي إلى نقطة مهمة، وهي أن العقلية المسلمة يجب أن تتدبر النص النبوي تدبرًا متأنيا؛ لتكتشف أسراره والتي منها حكمة الترتيب بين الأوامر والنواهي، وهذا يشير إلى أن الخلل في الإطار الفكري لا ينحصر في هجران النص، بل أحيانًا في الفهم المتسرع له ذاك الفهم الذي لا يستطيع العقل المسلم معه أن يتوصل إلى مراتب المصالح والمفاسد، وهنا تكمن الخطورة في نسبة هذا الخلل الرتبي إلى النص.

إن الخطابي بعقليته المتدبرة قد وضع أيدينا على كثير من النقاط المهمة، ومنها ما يلي:

١- أن هذا النص النبوي له سياق معرفي، وهو الكشف عن سر الترتيب وقدح زناد العقل للوقوف على هذه الأسرار مما يجعله بابًا من أبواب التعلق بالنص النبوي.

٢- أن البعد المعرفي في النص النبوي بعد متشعب، فالأمر يتعلق بتدبر من يقوم من النفس الإنسانية مقام الجزء منها ومن ليس كذلك، والتفكر فيمن يقدر على الاكتساب ومن لا يقدر ومن له كاسب ومن لا كاسب له، وكل هذا التفكر يزيد من القوة العقلية للإنسان، ويوسع مداركه المعرفية.

٣- أن من مجالات المعرفة التي يحويها هذا النص النبوي مجال الحياة الإنسانية وما يكتنفها من حالات الضعف والقوة، والعجز والقدرة، فالترتيب بين الفئات الاجتماعية المذكورة يرجع في جزء منه إلى اختلاف الأحوال الإنسانية.

٤- أن تفعيل هذه المفردة المعرفية – أعني التنبه إلى مقادير الأشياء وترتيبها حسب هذه المقادير – يجعل من الواجبات الاجتماعية التي قررها الإسلام واجبات ذات

(١) معالم السنن، جـ٢، صـ٨٢ (معالم السنن، شرح سنن أبي داود، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي، المطبعة العلمية، حلب، ١٩٣٢م، ط١)

نسق متكامل، فلا يسمح بتضخم الاعتناء بفئة اجتماعية وحرمان فئة أخرى أو نسيانها، بل حين تتخذ كافة التوجيهات القرآنية والنبوية بإطارها التكاملي فذلك يحقق الكفاية المجتمعية.

وإذا كان التنبيه إلى سلم الأولويات جاء في قضية من القضايا الاجتماعية، وهي قضية الإنفاق المادي، فإن أحاديث أخر قعَّدت للقاعدة العامة في العلاقات الاجتماعية مستخدمة كلمة من الكلمات الجامعة وهي كلمة "البر" بما لها من مدلول شمولي، فعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده (معاوية بن حيدة) ﷺ قلت: يا رسول الله من أبر؟ قال: (أمك) قلت من أبر؟ قال: (أمك) قلت من أبر؟ قال: (أمك) قلت من أبر؟ قال: (أباك ثم الأقرب فالأقرب)[1].

وفي حديث آخر: (إن الله عز وجل يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بآبائكم، إن الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب)[2].

إن هذين الحديثين من جملة الأحاديث التي تضبط تعاطي المسلم مع من حوله، وتوجد لديه نمطًا من أنماط الرؤية المستقيمة للعلاقات الاجتماعية، وحين نتدبر قراءة العلماء لهذين الحديثين نجد أنها قد سارت في نقاط ثلاث:

النقطة الأولى: إبراز القاعدة الاجتماعية العامة التي أصلها الحديثان، ومن ذلك قولهم: "فيه الحث على بر الأقارب"[3]

---

(١) أخرجه الترمذي، أبواب الطهارة، باب ما جاء في بر الوالدين جـ٤، ٣٠٩، رقم ١٨٩٧، وقال حديث حسن، (سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، وآخرون. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي، مصر، ١٩٧٥م، ط٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث المقدام بن معدي كرب الكندي أبي كريمة، عن النبي ﷺ جـ٢٨، صـ٤٢٤، رقم١٧١٨٧، وقال محققه: إسناده حسن. (مرجع سابق)

(٣) شرح النووي على مسلم، جـ١٦، صـ١٠٣

النقطة الثانية: الكشف عن الحكمة من تقديم الأم وكونها أحق الناس بهذا البر.

" وسبب تقديم الأم كثرة تعبها عليه وشفقتها وخدمتها ومعاناة المشاق في حمله ثم وضعه ثم إرضاعه ثم تربيته وخدمته وتمريضه وغير ذلك، ونقل الحارث المحاسبي إجماع العلماء على أن الأم تفضل في البر على الأب."(١)

النقطة الثالثة: الاجتهاد في ترتيب الأقارب انطلاقًا مما أصله هذان الحديثان "وأجمعوا على أن الأم والأب آكد حرمة في البر ممن سواهما. قال: وتردد بعضهم بين الأجداد والإخوة لقوله ﷺ: "ثم أدناك أدناك" قال أصحابنا: يستحب أن تقدم في البر الأم ثم الأب ثم الأولاد ثم الأجداد والجدات ثم الإخوة والأخوات، ثم سائر المحارم من ذوي الأرحام كالأعمام والعمات والأخوال والخالات، ويقدم الأقرب فالأقرب، ويقدم من أدلى بأبوين على من أدلى بأحدهما ثم بذي الرحم غير المحرم كابن العم وبنته وأولاد الأخوال والخالات وغيرهم، ثم بالمصاهرة، ثم بالمولى من أعلى وأسفل، ثم الجار، ويقدم القريب البعيد الدار على الجار، وكذا لو كان القريب في بلد آخر قدم على الجار الأجنبي، وألحقوا الزوج والزوجة بالمحارم."(٢)

وقد كان النبي ﷺ حريصًا على بيان التفاوت بين الواجبات والمكارم الاجتماعية خاصة عند وقوع الالتباس فيها، فعن البراء ﷺ قال: جاء أعرابي فقال: يا نبي الله علمني عملًا يدخلني الجنة قال: (لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة أعتق النسمة وفك الرقبة) قال أو ليستا واحدا؟ قال: (لا عتق النسمة أن تعتق النسمة، وفك الرقبة أن تعين على الرقبة والمنيحة الرغوب والفيء على ذي الرحم، فإن لم تطق ذلك فأمر بالمعروف وانه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من خير)(٣)

---

(١) المرجع السابق، جـ١٦، صـ١٠٣

(٢) المرجع السابق، جـ١٦، صـ١٠٣

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، أول مسند الكوفيين، حديث البراء بن عازب جـ٣٠، صـ٦٠٠، رقم

إن النبي ﷺ ربط بين الرغبة في دخول الجنة باعتبارها هدفًا أسمى يقع في الدرجة العليا من الأهداف التي وجه إليها الإسلام سعي المسلم وبين تصرفات إنسانية تحقق هذا الهدف، ولم يكتف بذلك، بل نبه على تفاوت هذه الأمور المحققة لهذه الغاية العليا.

وإذا جئنا إلى قضية الإحسان إلى الجار باعتبارها من أبرز القضايا الاجتماعية إذا أخذت في سياقها الكلي، فإن الهدي النبوي لم يكتف بالتنبيه على حق الجار ووضعه في المرتبة المستحقة وكف الأذى عنه بأنواعه المادية والمعنوية، بل إنه رتب الجيران، وأقام بينهم سلمًا من الأولويات، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، إن لي جارين، فإلى أيهما أهدي؟ قال: «إلى أقربهما منك بابا»(١)

واجتهد العلماء في بيان الحكمة من هذه الترتيب، ومن ذلك قول المهلب: "وإنما أمر عليه السلام بالهدية إلى من قرب بابه؛ لأنه ينظر إلى ما يدخل دار جاره وما يخرج منها، فإذا رأى ذلك أحب أن يشاركه فيه، وأنه أسرع إجابة لجاره عند ما ينوبه من حاجة إليه في أوقات الغفلة والغرة؛ فلذلك بدأ به على من بعد بابه، وإن كانت داره أقرب."(٢)

إننا نلحظ في توجيه المهلب إبرازًا لمدى التداخل الاجتماعي بين الجار وجاره تداخلًا يمتد من الإطار الوجداني إلى الإطار العملي مما يحتم النظر في هذه القضية نظرًا متمعنًا، ولئن كانت قضية الجوار قد مثلت أهمية اجتماعية معينة في الماضي فإنها مع اتساع العمران الإنساني وتشابك أوجه الحياة ازدادت هذه الأهمية مما يجعل من هذا

١٨٦٤٧، وقال محققه: إسناده صحيح.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند النساء، مسند الصديقة عائشة بنت الصديق رضي الله عنها، جـ٤٣، صـ١٥١، رقم ٢٦٠٢٥، وقال محققه: إسناده صحيح على شرط البخاري.

(٢) شرح البخاري لابن بطال، جـ٦، صـ٣٨٣ (شرح صحيح البخارى لابن بطال، ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، ٢٠٠٣م، ط٢)

الحديث إحدى الأحاديث التي لا بد من استحضار الوعي بها في مناقشة القضايا الاجتماعية المعاصرة في ضوء الهدي النبوي.

وتتتابع مسارات العلاقة بين الوعي بالأولويات وتحقيق حالة الوئام الاجتماعي في الهدي النبوي حين نجد أن من بين صور مراعاة الأولويات جعلها آلية من آليات تضييق هوة الخلاف الاجتماعي، وسلوك مسلك مضاد لنوازع النفس الإنسانية الجانحة، فقد جاء عن حكيم بن حزام، أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ عن الصدقات، أيها أفضل؟ قال: " على ذي الرحم الكاشح "[1]

إن المراد بذي الرحم الكاشح من يضمر العداوة ويطوي كشحه عليها، أو من يطوي كشحه عنك ولا تقع بينك وبينه ألفة، يعني أن أفضل صدقة على صاحب الرحم الذي يضمر العداوة في باطنه، فالتصدق عليه أفضل من التصدق على ذي رحم غير كاشح، وذلك لما يحويه ذلك من قهر للنفس لتذعن لمعاديها[2].

لقد تبين من هذا أن الوعي بسلم الأولويات في المجال الاجتماعي يراعي الطبيعة البشرية، ويعد أداة من أدوات التعاطي الإيجابي معها، ونزع ما قد يخرجها عن إطارها الذي تقتضيه توجيهات الشرع الحنيف مما يبين أن معالجة الهدي النبوي للقضايا الاجتماعية كان منسجمًا مع المرتكزات الإنسانية العامة التي أصلها الإسلام.

وقد كان من مجالات تدبر العلماء للهدي النبوي في المجال الاجتماعي الكشف عن وجه الأولوية في تصرفاته ﷺ، ومن صور ذلك ما جاء عن أبي هريرة، أنه قال:

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكيين، مسند حكيم بن حزام، عن النبي ﷺ جـ٢٤، صـ٣٦، رقم ١٥٣٢٠، وقال محققه: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف لضعف سفيان بن حسين.

(٢) ينظر: فيض القدير، جـ٢، صـ٣٨ (فيض القدير شرح الجامع الصغير، زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي، المكتبة التجارية الكبرى. مصر، (١٣٥٦هـ)، ط١

كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى النبي ﷺ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ، قال: «اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مُدِّنا، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك، وإني عبدك ونبيك، وإنه دعاك لمكة، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة، ومثله معه»، قال: ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر(١).

لقد بحث العلماء عن وجه إعطاء النبي ﷺ الثمر لأصغر وليد، فقال الباجي: يُحتمل أن يريد بذلك عظم الأجر في إدخال المسرة على من لا ذنب له لصغره، فإن سروره به أعظم من سرور الكبير.

وقال أبو عمر لأنه أولى من الكبير لقلة صبره ولفرحه بذلك، وفي رسول الله ﷺ أسوة حسنة في كل حال.

وقال عياض: تخصيصه أصغر وليد حضره؛ لأنه ليس فيه ما يقسم على الولدان، ومن كبر منهم ملحق بأخلاق الرجال، وتلويحًا إلى التفاؤل بنماء الثمار وزيادتها بدفعها لمن هو في سن النماء والزيادة كما قيل في قلب الرداء للاستسقاء(٢).

إن بحث العلماء في علة هذا التصرف النبوي، واختلافهم في تحديدها يعطينا دلالة على إدراكهم كون هذه التصرفات تأصيلًا لمفردات فكرية تشكل العقلية المسلمة.

وحين كانت مسألة المواريث من أهم القضايا الاجتماعية نظرًا أولًا لمكانة المال من النفس الإنسانية والمحبة الجبلية له، وثانيًا لكون الأطراف المتعلقة به تجمعها أواصر القربة؛ لأنها تتعلق بالدائرة الاجتماعية الضيقة التي إن شابها النزاع اضطربت الدائرة

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة، ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة، وبيان تحريمها، وتحريم صيدها وشجرها، وبيان حدود حرمها جـ٢، صـ١٠٠٠، رقم ١٣٧٣

(٢) شرح الزرقاني على الموطأ، جـ٤، صـ٣٤٥ (شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م)

الاجتماعية الأوسع، حين كان الأمر كذلك برزت مسألة الأولويات والتنبه إلى مراتب الأمور كإحدى الأسس التي قام عليها نظام الميراث في الإسلام حتى جاء تأسيس المنهج النبوي لهذه المفردة الفكرية في حديث عده العلماء من أعظم أحاديث الميراث وهو قوله ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر»(١).

حتى ذكر ابن رجب أن بعض من شرح الأربعين النووية قد تعقب على جامعها – رحمه الله – تركه لهذا الحديث؛ لأنه الجامع لقواعد الفرائض التي هي نصف العلم، فكان ينبغي ذكره في هذه الأحاديث الجامعة، كما ذكر حديث «البينة على المدعي، واليمين على من أنكر» لجمعه لأحكام القضاء. ثم ذكر أنه رأى أن يضم هذا الحديث إلى أحاديث الأربعين التي جمعها الشيخ رحمه الله. (٢)

وذكر النووي أنه قد أجمع المسلمون على أن ما بقي بعد الفروض فهو للعصبات يقدم الأقرب فالأقرب، فلا يرث عاصب بعيد مع وجود قريب.(٣)

إن ترتيب هذه الحقوق لا شك أن له أثره العميق على الحالة الاجتماعية مما يعد ميزة من الميزات العامة للشريعة الإسلامية وما فيها من المصالح

"المصالح في الشريعة الإسلامية منضبطة ومحدودة من جميع أطرافها بما لا يدع مثقال ذرة من مجال للاضطراب أو الغموض في فهمها، ومرَّتبة في أنواعها ترتيبًا لا يترك أي مجال للتناقض أو التداخل فيما بينها."(٤)

---

(١) البخاري، جـ٨، صـ١٥٢، رقم ٦٧٣٧

(٢) جامع العلوم والحكم، جـ١، صـ٥٧ (جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت، طـ٧، ٢٠٠١م، طـ٧)

(٣) شرح النووي، جـ١١، صـ٥٣

(٤) ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية، البوطي، مؤسسة الرسالة، صـ١٤

وحين كانت المظالم الاجتماعية مما يقع تحت مسمى "الذنب"، فإن النبي ﷺ أشار إلى أنها بدرجات متفاوتة، فعن عبد الله قال: سألت النبي ﷺ: " أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك». قلت: إن ذلك لعظيم، قلت: ثم أي؟ قال: «وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»[١]

لقد ذكر ابن حجر أن هذه المراتب الثلاث مرتبة حسب العظم، ولو كان هناك شيء فيما لم يذكره متصفًا بكونه أعظم منها لما كان الجواب مطابقًا للسؤآل.[٢]

وعلَّل العلماء هذا الترتيب، فذكروا أنه ﷺ جعل قتل الولد خشية أكله مع أبيه أعظم ذنب بعد الشرك؛ لأنه يجمع بين قتل وقطع رحم ونهاية من البخل، وذكر البخاري الحديث في باب رحمة الولد ليخبرنا أن قتل الولد مخافة أن يأكل مع أبيه يُعد من أعظم الذنوب عنده تعالى بعد الشرك به، فإن كان كذلك فصلته ورحمته يُعد من أعظم أبواب البر بعد الإيمان به تعالى.[٣]

إن ما مضى يؤسس لما يطلق عليه القدرة الاجتماعية، والتي تعني "القدرة على حسن التعامل مع الآخرين، وعلى المساهمة في التفاعل الاجتماعي، أو القدرة على إحراز التأثير في الآخرين والاندماج معهم دون ما خلاف أو خصام، أو القدرة على

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] جـ٦، صـ١٨، رقم ٤٤٧٧ (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، شرح وتعليق: مصطفى ديب البغا، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ)

(٢) ينظر: شرح البخاري لابن حجر، جـ١٢، صـ١١٧١٧، (فتح الباري شرح صحيح البخاري. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩هـ)

(٣) ينظر: شرح البخاري لابن بطال، جـ٩، صـ٢١٤ (شرح صحيح البخارى لابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك ابن بطال، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، ٢٠٠٣م)، ط٢

التكيف والانسجام مع الآخرين."[١]

إن القدرة الاجتماعية هذه يؤسسها الإسلام على منحيين رئيسين هما: المنحى العقلي والمنحى الوجداني، فالإنسان فيها كما قال العقاد: يدين بعقله فيما رأى وسمع، ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب.[٢]

إننا يمكن أن نستخرج عدة دلالات مما سبق، ومنها ما يلي:

١- أن انشغال الصحابة رضي الله عنهم بمعرفة مراتب الذنوب، والسؤآل عنها إشارة إلى وعيهم بأن لها مراتب، وهذا الوعي ناشئ من خلال فهمهم للوحي الإلهي كتابًا وسنة.

٢- أن المكون العقدي هو الأساس الأول للحالة الإنسانية، فإذا اختل اختلت معه جميع السياقات.

٣- أن الخلل الاجتماعي ليس قاصرًا على المحيط الخارجي للعلاقات الإنسانية، بل قد يقع في الإطار الأقرب للإنسان؛ لذا رأينا الحديث يذكر صورتين إحداهما للإطار الخارجي والأخرى للإطار الأقرب للإنسان.

٤- أن الإمام البخاري وسع دائرة الاستدلال بالحديث، فجعله دليلًا على ترتيب أعمال البر، وذلك من خلال ترجمته. ويأتي هذا كصورة من الصور الكاشفة عما ذكره العلماء من كون فقه البخاري في تراجمه، كما يدلل على أن الأفق المعرفي للأمة إنما بني على تدبر الوحي الإلهي كتابًا وسنة، وأننا حين نعجب بالتراث الفكري للأمة عمقًا وتنوعًا، فينبغي ألا نفصله عن مكوناته التأسيسية من الوحي الإلهي.

---

(١) معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، صـ ٣٨٠

(٢) الإنسان في القرآن، عباس العقاد، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٤م، صـ١٠

المطلب الثاني
السياق الاجتماعي لتدبر المآلات

إننا كلما تتبعنا وظائف الملكة العقلية وجدنا أنها وظائف متشعبة تمتد امتداد الحاجة الإنسانية للمعارف.

لقد ذكر محمد فريد وجدي أن الحاجة الجسدية للإنسان تقل شيئًا فشيئًا إذا ابتدأ الإنسان في تلبيتها بخلاف الحاجة العقلية المعرفية فإنها تزداد كلما لباها الإنسان.(١)

ومن أعظم أنواع التفكر التي تأسست في ثنايا المنهج النبوي التفكر في المآلات، **وهو نوع من أنواع إعمال الملكة العقلية في تدبر الأفعال والأقوال وما تسفر عنه، ومن خصائص هذا النوع من أنواع التفكير ما يلي:**

أولا: أنه يمثل إحدى الصور الكاشفة عن التعاطي الإيجابي مع الإطار الزمني، فتدبر المآلات هو نظرة توازنية إلى أجزاء الزمن الثلاثة أعني الماضي والحاضر والمستقبل.

ثانيا: أنه يعد صورة من صور توسيع الأفق العقلي، وعدم انحصاره في رؤية الوقائع الحسية الآنية، وتوجيهه إلى إطلاق القوة المخيلة التي يمكن للإنسان أن يستحضر من خلالها صورًا تقريبية للعواقب في المستقبل.

إن هذا التدبر نوع من أنواع توظيف هذه الملكة فيما اقتضته الحكمة الإلهية من خلقها؛ حيث ذكر الماتريدي أن من معاني الحكمة الإلهية: "وضع الأشياء مواضعها، ومن ذلك خلقه للعقول ليدرك بها البشر العواقب."(٢)

وقد تكاثرت دلائل تأسيس المنهج النبوي لهذه المفردة الفكرية، ومن النصوص المؤسسة لها قوله ﷺ: "يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار، فيصبغ في النار صبغة،

---

(١) ينظر: الإسلام في عصر العلم، محمد فريد وجدي دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، صـ٤٢

(٢) تفسير الماتريدي جـ٩، صـ٥٧٩ تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي، تحقيق: مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥م، ط٢.

ثم يقال له: هل رأيت خيرا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله. ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة فيقال له: هل رأيت بؤسًا قط؟ فيقول: لا والله يا رب ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط."[١]

لقد عدَّ ابن الجوزي من فوائد هذا الحديث: "مراعاة العواقب، فإن التعب إذا أعقب الراحة هان، والراحة إذا أثمرت النصب فليست راحة، فالعاقل من نظر في المآل لا في عاجل الحال."[٢]

وأشار المنهج النبوي إلى مفهومين متقابلين، وهما مفهوما الأناة والعجلة، وحثَّ على تبني أولاهما والبعد عن ثانيهما، فقال ﷺ: (الاناة من الله تعالى والعجلة من الشيطان)[٣]، وكشف العلماء سر التحذير من العجلة كونها نابعة في الغالب من ترك النظر في مآلات الأمور.[٤]

ومن المفاهيم التي أصلها المنهج النبوي مفهوم الكيّس، وذلك في قوله ﷺ: " الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله "[٥]

وهذا المفهوم أحد المفاهيم التي أشار من خلالها الإسلام إلى وظائف الملكة العقلية

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار وصبغ أشدهم بؤسا في الجنة جـ٤، صـ٢١٦٢، رقم ٢٨٠٧

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين، جـ٣، صـ٣١٠ (كشف المشكل من حديث الصحيحين: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق: علي حسين البواب، دار الوطن، الرياض.)

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في التأني والعجلة، جـ٤، صـ٣٦٧، رقم٢٠١٢، وقال: هذا حديث غريب. وقد تكلم بعض أهل العلم في عبد المهيمن بن عباس بن سهل وضعفه من قبل حفظه.

(٤) ينظر: التيسير شرح الجامع الصغير جـ١، صـ٤٢٦

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث شداد بن أوس، جـ٢٨، صـ٣٣٤، رقم ١٧١٢٣، وقال محققه: إسناده ضعيف لضعف أبي بكر بن أبي مريم، وباقي رجال الإسناد ثقات.

حيث بين العلماء أن (الكيِّس) معناه "العاقل المتبصر في الأمور الناظر في العواقب"[١].

وهذا العاقل المتبصر في العواقب لا يعيش في إطار انعزالي عن المجتمع، بل إنه يتفاعل معه تفاعلًا متعدد المسالك مما يجعل من تبني هذه المفردة الفكرية ذا آثار اجتماعية.

وقد بينت النصوص النبوية أن إهمال تدبر العواقب ينقل المجتمع نقلة سلبية تتتابع فيها المظاهر المفسدة، فعن عبد الله بن عمرو، رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه» قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه»[٢]

ذكر ابن بطال أن هذا الحديث يعد أصلًا في سد الذرائع؛ لأنه دل على أن من يؤول فعله إلى محرم حتى وإن لم يقصده فإنه كمن يقصده ويتعمده في الإثم؛ لأن ظاهر نهي النبي ﷺ أن يلعن الرجل والديه أن الابن يتولى بنفسه لعنهما، فحين أخبر ﷺ أنه إذا قام بسب أبي لرجل وسب هذا الرجل أباه وأمه فإنه كمن تولى هذا بنفسه، وكان الذي آل إليه فعل ابنه مثل لعنه في المعنى لأنه كان السبب فيه.[٣]

إن كلام ابن بطال يترك لنا العديد من الدلالات منها ما يلي:

١- أن وضع القواعد المنهجية التي تأسست من خلالها بنية العلوم الشرعية ظهرت ثماره من خلال دمج هذه القواعد بمجالات الحياة، فهذا الحديث الذي عده ابن بطال أصلًا لسد الذرائع جاء في سياق اجتماعي يضع حدا لشيوع التلاسن البغيض الذي يشعل العداوة بين أفراد المجتمع، ويمكن أن يمتد إلى ما هو أعظم من التلاسن القولي.

٢- أن الأمر دون النظر في عواقبه قد لا تظهر آثاره الكاملة؛ لذا استعمل النبي

---

(١) التيسير شرح الجامع الصغير جـ٢، صـ٢٢٨ (التيسير بشرح الجامع الصغير، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ١٩٨٨م، طـ٣)

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه جـ٨، صـ٣، رقم ٥٩٧٣

(٣) ينظر: شرح ابن بطال لصحيح البخاري، جـ٩، صـ١٩٣

ﷺ هذا الأسلوب البياني ليلفت الانتباه إلى الآثار الكامنة في السلوك الإنساني والتي قد لا يتنبه لها من خلال النظرة المتعجلة القاصرة.

ومن النصوص النبوية المؤصلة لمحورية تدبر العواقب في البناء الاجتماعي ما جاء عن حميد بن عبد الرحمن، أن أمه أم كلثوم ابنة عقبة بن أبي معيط أخبرته، أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فيقول خيرًا، أو ينمي خيرًا»، قالت: ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس من الكذب إلا في ثلاث: الإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها.(١)

ورغم اختلاف العلماء في ماهية الكذب المباح في هذه المواضع هل المراد به قول ما لم يكن أم المراد به التورية واستعمال المعاريض.(٢) فإن ما يعنينا هنا هو أن اختلاف عواقب الأمور تتحدد من خلاله التصرفات الإنسانية وهذا الاختلاف إنما يحتاج إلى تدبر متوال لإدراكه مما يجذر العلاقة بين هذا التدبر والصلاح الاجتماعي.

وحين كان حفظ النفس أحد مقاصد الشريعة الخمسة، فإن الإسلام جعل من تدبر العواقب وسيلة من وسائل الحفاظ عليها؛ حيث شرع القصاص من القاتل فقال ﷺ: "ومن قُتِل له قتيل فهو بخير النظرين: إما يودي وإما يقاد "(٣)

وجاء الخطاب المبين فيه الحكمة من مشروعية القصاص موجهًا لأصحاب المسلك الخاص من مسالك تفعيل الملكة العقلية، وسماهم أولي الألباب، قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٩]

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب: ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس، جـ٣، صـ١٨٣، رقم ٢٦٩٢.

(٢) شرح النووي، جـ١٦، صـ١٥٨

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الديات، باب من قُتل له قتيل فهو بخير النظرين، جـ٩، صـ٥، رقم ٦٨٨٠

لقد ذكر الرازي أن الخطاب وُجِّه لأولي الألباب لأنهم أصحاب الملكة العقلية الذين يدركون من خلالها عواقب الأمور، وهم الذين يعون أوجه الخوف، فإذا دفعتهم أنفسهم إلى الإقدام على أن يقتلوا أعداءهم وعلموا أنهم سيطالبون بالقود أضحى ذلك رادعًا لهم، فالعاقل لا يختار إتلاف غيره بإتلاف نفسه، وكل هذا يشكل سببًا للكف عن القيام بذلك، ولكن هذا الخوف إنما يتولد عند من لديه عقل يدعوه إلى هذا التدبر للعواقب

أما من يحرم نفسه هذا النوع من التفكر فلا يضحي لديه هذا الخوف؛ ولهذا فإنه تعالى خص أولي الألباب بهذا الخطاب.(١)

وحين كان مفهوم الظلم أحد المفاهيم العامة التي تجمع تحتها مئات الصور التي تتخلخل معها الحالة الاجتماعية نهى عنه ﷺ، ووصفه بأنه ظلمات يوم القيامة، وبين العلماء أن من أسباب وقوع الإنسان في الظلم هو التنكر لهذه المفردة الفكرية أعني تدبر عواقب الأمور.

قال ابن الجوزي: "إنما ينشأ الظلم من ظلمة القلب، ولو استنار بنور الهدى لنظر في العواقب.(٢)

إن كلام ابن الجوزي يبين لنا أن الهداية ذات شعب متعددة، وأن من بين هذه الشعب الهداية الفكرية – أي استعمال العقل – وفقًا للوظائف التي خلق من أجلها، وحين تتحقق هذه الهداية الفكرية فإن ذلك باب عظيم من أبواب الهداية الاجتماعية العامة.

وحين كانت مسألة الدَّين إحدى المسائل الاجتماعية التي تكتنفها العديد من الإشكاليات كحمل صاحبه على سلوك مسالك تخالف الجادة استعاذ منه النبي ﷺ مؤصلًا بذلك النظر في عواقب الأمور وتدبرها، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يدعو في الصلاة ويقول: «اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم»، فقال له قائل: ما أكثر ما تستعيذ يا

(١) ينظر: تفسير الرازي جـ٥صـ٢٣٠

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين، جـ٢، صـ٥٦٠

رسول الله من المغرم؟ قال: «إن الرجل إذا غرم حدث فكذب، ووعد فأخلف»[١]

قال المهلب يستفاد من هذا الحديث سد الذرائع؛ لأنه ﷺ استعاذ من الدين؛ لأنه في الغالب ذريعة إلى الكذب في الحديث والخلف في الوعد مع ما لصاحب الدين عليه من المقال اهـ. ويحتمل أن يراد بالاستعاذة من الدين الاستعاذة من الاحتياج إليه حتى لا يقع في هذه الغوائل أو من عدم القدرة على وفائه حتى لا تبقى تبعته."[٢]

إن التفكر في العواقب والنظر في مآلات الأمور آلية محورية من آليات الوقاية الاجتماعية عامة والأسرية خاصة، ويمكن إيراد أحاديث كثيرة في هذا السياق، ومنها ما جاء عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «لا تباشر المرأة المرأة، فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها»[٣].

قال القابسي: "هذا أصل لمالك في سد الذرائع، فإن الحكمة في هذا النهي خشية أن يعجب الزوج الوصف المذكور فيفضي ذلك إلى تطليق الواصفة أو الافتتان بالموصوفة"[٤].

ومن ذلك أيضا ما جاء عن عقبة بن عامر: أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والدخول على النساء» فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحمو؟ قال: «الحمو الموت»[٥]

وبيَّن المنهج النبوي أن النظر في العواقب ليس مجرد مسلك فكري، بل إنه يستتبع

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب من استعاذ من الدين، جـ٣، صـ١١٧، رقم٢٣٩٧

(٢) فتح الباري، جـ١، صـ٦٥

(٣) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب: لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها، جـ٧، صـ٣٨، رقم ٥٢٤٠.

(٤) تحفة الأحوذي، جـ٨، صـ٦٢ (تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، أبو العلا محمد عبد الرحمن المباركفورى، دار الكتب العلمية، بيروت)

(٥) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، والدخول على المغيبة جـ٧، صـ٣٧، رقم ٥٢٣٢

تصرفات واقعية تضبط الحياة الاجتماعية، ومن ذلك قوله ﷺ: إذا مر أحدكم في مسجدنا أو في سوقنا ومعه نبل فليمسك على نصالها بكفه لا يعقر مسلمًا(١).

وقد استفادت العقلية المسلمة مما أصله الإسلام في الحث على النظر في المآلات وتدبر العواقب، وبرز ذلك في دليل شرعي وهو سد الذرائع، وحين نتتبع كلام الأصوليين حول هذا الدليل نعلم أن الأمر يحتاج إلى مزيد من النظر والتفكر للتفرقة بين درجات ما يؤول إليه كل أمر؛ لذا أبان القرطبي أن الذي يفضي إلى المحظور له قسمان:

الأول: ما يستلزم الوقوع قطعا، والثاني ما ليس كذلك، والأول لا يعد من باب سد الذرائع بل يعد من باب ما لا يجتنب الحرام سوى باجتنابه وحرمته تعد من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وأما الذي لا يستلزم الوقوع في المحظور قطعًا إما أن يؤدي إلى المحظور في الغالب أو ينفك غالبا عنه، أو يستوي فيه الأمران، وهذا الأخير هو الذي يسمى بالذرائع عندنا، فالأول تجب مراعاته، والثاني والثالث اختلف فيه الأصحاب.(٢)

وقال القرافي: ": إن مالكا لم ينفرد بذلك، بل كل واحد يقول بها، ولا خصوصية للمالكية بها إلا من حيث زيادته فيها. قال: فإن من الذرائع ما هو معتبر إجماعًا، كالمنع من حفر الآبار في طريق المسلمين، وإلقاء السم في طعامهم، وسب الأصنام عند من يعلم من حاله أنه يسب الله. و (منها) ما هو ملغي إجماعًا، كزراعة العنب، فإنها لا تمنع خشية الخمر وإن كان وسيلة إلى المحرم، و (منها) ما هو مختلف فيه، كبيوع الآجال، فنحن نعتبر الذريعة فيها وخالفنا غيرنا. فحاصل القضية أنا قلنا بسد الذرائع

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، قول النبي ﷺ: «من حمل علينا السلاح فليس منا»، جـ٩، صـ٤٩، رقم ٧٠٧٥

(٢) ينظر: البحر المحيط في أصول الفقه، جـ٨، صـ٩١(البحر المحيط في أصول الفقه، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي، دار الكتبي، ١٩٩٤م، ط١)

أكثر من غيرنا، لا أنها خاصة."[١]

إن الأمثلة التي ذكرها القرافي لا شك أن لها مردودًا اجتماعيا، وهذا يظهر أن تفعيل الفقه الإسلامي لهذه المفردة الفكرية أعني النظر في المآلات مثَّل آلية من آليات الضبط الاجتماعي للأمة.

وحين ننظر إلى التراث الفكري الإسلامي نجد أن قضية تدبر العواقب كانت حاضرة، وامتلأت كتب الأدب بالحديث عن العلاقة بين وصف الإنسان بالعاقل وبين تدبره للمآلات والعواقب، ومن ذلك قولهم: العاقل من افتتح في كل أمر خاتمته، وعلم من بدء كل شيء عاقبته[٢].

وجاء أيضا: لَيْسَ الْعَاقِل من يتحرز من الْأَمر الَّذِي يَقع فِيهِ، حَتَّى يخرج مِنْهُ، إِنَّمَا الْعَاقِل من يتحرز من الْأَمر الَّذِي يخشاه، حَتَّى لَا يَقع فِيهِ.[٣]

ومن كلامهم: العاقل من يرى بأول رأيه آخر الأمر. العقل.[٤]

وحين كانت محاسبة النفس إحدى المفاهيم التربوية التي تكررت في ثنايا الفكر التربوي الإسلامي فإن أساسًا من أسس هذه المحاسبة يقوم على النظر في مآلات الأمور وتدبر عواقبها.

قال الماتريدي: "فمحاسبة النفس: أن ينظر في كل فعل يريد أن يقدم عليه إلى

---

(١) المرجع السابق، جـ٨، صـ٩١

(٢) الإعجاز والإيجاز صـ١٠٦ الإعجاز والإيجاز، عبد الملك بن محمد أبو منصور الثعالبي، مكتبة القرآن، القاهرة)

(٣) نثر الدرر في المحاضرات، جـ٣، صـ٥٩ نثر الدر في المحاضرات، منصور بن الحسين الرازي، أبو سعد الآبى، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤م، ط١

(٤) التمثيل والمحاضرة جـ٤٢٦(التمثيل والمحاضرة، عبد الملك بن محمد أبو منصور الثعالبي، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، ١٩٨١م، ط٢)

عاقبته، فإن كان رشدًا أمضاه وأنفذه، وإن كان غيا انتهى عنه...فهذا الذي ذكرنا محاسبة المرء نفسه فيما يروم من الأمور، ومحاسبة نفسه في الأفعال التي ارتكبها وأمضاها أن ينظر: فإن كان ارتكب محرمًا، تاب عنه، واستغفر لله – تعالى – لعله بفضله يمن عليه بالمغفرة، وإن كان ذلك فعلًا مرضيا حمد الله – تعالى – وسأله التوفيق بمثله؛ فهذه هي محاسبة العبد لنفسه فيما ارتكب من الأفعال."[1]

إن الماتريدي يقرر أن محاسبة النفس باعتبارها آلية تربوية تقويمية لا تنحصر في النظر إلى الزمن الماضي وما فيه من الأحداث، بل تمتد إلى جميع أزمنة الحياة الإنسانية.

(١) تفسير الماتريدي جـ١٠، صـ١٨٨

المطلب الثالث
السياق الاجتماعي لتشكيل العقلية المعيارية

المعيار في دلالته اللغوية يعني: المقياس الذي يُقاس به غيره للحكم والتقييم.(١)
ويُعرَّف بأنه مقياس خارجي للحكم على الأشياء أو لتقدير صحتها.(٢)
وتمثل المعايير القواعد الأنموذجية Model Rules أو الأطر المرجعية أو الشروط التي نحكم من خلالها أو نقيس عليها سلوكيات الأفراد.(٣)
وهذه الدلالات تفيد أن المعيار إحدى الآليات المعرفية الجوهرية، وأن العقلية التي تتبنى معايير سليمة فإن حكمها على الأشياء يكون سليمًا.
لذا، رأينا المنهج المعرفي الإسلامي يشكل العقلية المعيارية، ونعني بها تلك العقلية التي تتبصر المعايير التي تتخذها مقياسًا للحكم على الأقوال والأفعال، وقد كان لهذا مردوده الاجتماعي البين؛ لذا رأينا النصوص النبوية المؤصلة للصلاح الاجتماعي تجعل من وضع المعايير الصحيحة البينة إحدى الآليات في تأسيس هذا الصلاح.
ومن الأحاديث الجامعة في هذا الإطار قوله ﷺ: " يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى أبلغت "، قالوا: بلغ رسول الله..."(٤)
لقد بين العلماء وجه كون التقوى معيار التفاضل، فقال الرازي: "والافتخار إن كان

---

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة، جـ٢، صـ١٨٥٢
(٢) معجم المصطلحات التربوية والنفسية، حسن شحاته، زينب النجار، مراجعة حامد عمار، الدار المصرية اللبنانية، صـ٢٨٥، ٢٠٠٣م، ط١
(٣) المرجع السابق، صـ ٢٨٥
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، أحاديث رجال من أصحاب النبي ﷺ، حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ، جـ٣٨، صـ٤٧٤، رقم ٢٣٤٨٩، وقال محققه: إسناده صحيح.

بسبب الغنى، فالكافر قد يكون غنيا، والمؤمن فقيرًا وبالعكس، وإن كان بسبب النسب، فالكافر قد يكون نسيبًا، والمؤمن قد يكون عبدًا أسود وبالعكس، فالناس فيما ليس من الدين والتقوى متساوون متقاربون، وشيء من ذلك لا يؤثر مع عدم التقوى، فإن كل من يتدين بدين يعرف أن من يوافقه في دينه أشرف ممن يخالفه فيه، وإن كان أرفع نسباً أو أكثر نشبًا، فكيف من له الدين الحق وهو فيه راسخ، وكيف يرجح عليه من دونه فيه بسبب غيره." (١)

لقد فند الرازي بعقليته المتأملة استحقاق معايير غير الدين والتقوى أن تكون هي المعايير المعتبرة في الإطار الاجتماعي ممثلًا بكل من معيار النسب ومعيار المال.

وحين نطالع التقويم النبوي للمجال الاجتماعي نجد أن إيضاح المعايير الصحيحة كان إحدى مسارات هذا التقويم حتى كان النبي ﷺ يتخذ من الحوار وسيلة لتأسيس المعيارية الحقة وإبطال المعايير المتوهمة، ومن ذلك ما جاء عن سهل، قال: مر رجل على رسول الله ﷺ، فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، وإن قال أن يستمع، قال: ثم سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين، فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حري إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يستمع، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»(٢)

نظـرة تحليلية :

١- يظهر هذا الحديث الحرص النبوي على تفقد المعيارية الشائعة في المجتمع؛ لأن ذلك يشكل المرحلة الأولى من مراحل التقويم الاجتماعي.

٢- تشعب متعلقات المعيار الذي يسود المجتمع؛ حيث لاحظنا أنه يمتد من القول إلى الفعل ومن العلاقات الاجتماعية الضيقة إلى ما هو أوسع منها.

---

(١) تفسير الرازي، جـ٢٨، صـ١١٢

(٢) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، جـ٧، صـ٨، رقم ٥٠٩١

٣- أن الصور المتقابلة تعكس شيوع المعيار من عدمه؛ لذا رأينا النبي ﷺ صحح المعيار الاجتماعي من خلال عرض صورتين متقابلتين من صور الحياة الاجتماعية.

ولم يكتف المنهج النبوي بتصحيح المعيار الاجتماعي في الإطار العام، بل كذلك في التوجيه الفردي والرؤية الذاتية للإنسان كما نجد ذلك في حديث أنس، أن رجلًا من أهل البادية كان اسمه زاهرًا، وكان يهدي إلى رسول الله ﷺ الهدية من البادية، فيجهزه رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج، فقال النبي ﷺ: " إن زاهرًا باديتنا، ونحن حاضروه ". وكان النبي ﷺ يحبه، وكان رجلًا دميمًا، فأتاه النبي ﷺ يومًا وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه ولا يبصره الرجل، فقال: أرسلني من هذا، فالتفت فعرف النبي ﷺ، فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ، حين عرفه، وجعل النبي ﷺ يقول: " من يشتري العبد؟ " فقال: يا رسول الله، إذا والله تجدني كاسدًا، فقال النبي ﷺ: " لكن عند الله لست بكاسد أو قال: " لكن عند الله أنت غال.(١)

إن هذا الحديث ليس مجرد إخبار عن فضل بعض الصحابة، بل إنه صورة من صور التأسيس المعرفي ذي المردود اجتماعي؛ لأن النبي ﷺ قد لفت الانتباه إلى ضرورة تفقد الإنسان المتوالي ما عنده من المعايير التي يحكم من خلالها على الأشخاص أو الأفكار أو الأقوال أو الأفعال.

وتأتي الكلمات الجامعة التي قررها الوحي الإلهي لتمثل معايير عامة وقواعد كلية يستحضرها العقل المسلم في تعاملاته الاجتماعية ومن تلك الكلمات الجامعة كلمة (المعروف). وحين نتدبر ورود هذه الكلمة في السنة النبوية نجد أنها شكلت معيارًا عظيمًا من المعايير التي تؤسس عليها الحياة الاجتماعية، ومن تلك الأحاديث ما جاء عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن النبي ﷺ كتب كتابًا بين المهاجرين

(١) مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، جـ٢٠، صـ٩١، رقم ١٢٦٤٩، وقال محققه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

والأنصار: " أن يعقلوا معاقلهم، وأن يفدوا عانيهم بالمعروف، والإصلاح بين المسلمين"[١]

وأتى هذا المعيار في قضية النفقة باعتبارها إحدى المسائل الضابطة للحياة الزوجية والأسرية، فعن عائشة رضي الله عنها: قالت هند أم معاوية لرسول الله ﷺ: إن أبا سفيان رجل شحيح، فهل عليَّ جناح أن آخذ من ماله سرا؟ قال: «خذي أنت وبنوك ما يكفيك بالمعروف»[٢].

قال القرطبي: قوله: "خذي" أمر إباحة بدليل قوله: "لا حرج"، والمراد بالمعروف القدر الذي عُرف بالعادة أنه الكفاية.[٣]

إن هذا المعيار الذي بينه النبي ﷺ يفتح الأفق العقلي للتفكير في القضايا الحياتية وفقا له.

"الإسلام مجموعة مفاهيم عن الحياة تشكل وجهة نظر معينة، وجاء في خطوط عريضة. أي معان عامة تعالج جميع مشاكل الإنسان في الحياة يستنبط منها بالفعل علاج كل مشكلة إنسانية؛ بحيث تجعله مستندًا إلى قاعدة فكرية تندرج تحتها جميع الأفكار عن الحياة، وتكون مقياسًا تبنى عليه جميع الأفكار الفرعية."[٤]

وأتى هذا المعيار كذلك في بيان جملة من الحقوق ذات الإطار الاجتماعي، فقال رسول الله ﷺ: " للمسلم على المسلم ست بالمعروف: يسلم عليه إذا لقيه ويجيبه إذا دعاه، ويشمته

(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب عن النبي ﷺ، جـ٤، صـ٢٥٨، رقم٢٤٤٣، وقال محققه: إسناده ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم: في البيوع والإجارة والمكيال والوزن، وسننهم على نياتهم ومذاهبهم المشهورة جـ٣، صـ٧٩، رقم ٢٢١١

(٣) فتح الباري، جـ٩، صـ٥٠٩

(٤) الإسلام وثقافة الإنسان، سميح عاطف الزين، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٣م، طـ٤

إذا عطس، ويعوده إذا مرض، ويتبع جنازته إذا مات، ويحب له ما يحب لنفسه."[١]

فمعنى "ست بالمعروف": ست خصال ملتبسة بالمعروف، وهو ما عرف في الشرع والعقل حسنه.[٢]

وحين كان تحديد كنه المسكين ودرجاته أمرًا محوريا في تحقيق التكافل الاجتماعي، وكان له مفهوم شائع فإن الهدي النبوي وضع أمامنا معيارًا يتحدد به، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «ليس المسكين الذي ترده الأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذي ليس له غنى، ويستحيي أو لا يسأل الناس إلحافا.»[٣]

ذكر ابن بطال أن المراد بالمسكين هنا المسكين المتكامل لأسباب المسكنة؛ ذلك لأنه يأتيه الكفاف وما يزيد عليه من خلال مسألته فيزول اسم المبالغة في المسكنة عنه وإنما من يستحق اسم المسكين المتكامل لأسباب المسكنة من ليس لديه غنى ولا يجد من يتصدق عليه."[٤]

وحين كان التعامل الاجتماعي ثنائي المسلك أي ما بين المسلك الوجداني والمسلك الإجرائي العملي، فإن النبي ﷺ وضع معيارًا لكليهما، وهو أن يكون هذا التعامل لوجه الله تعالى، فقال: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان»[٥]

إن تبني هذا المعيار يعد بابًا عظيمًا من أبواب التزكية الإنسانية، وهذه التزكية

---

(١) أخرجه الترمذي، أبواب الأدب، باب ما جاء في تشميت العاطس، جـ٥، صـ٨٠، رقم ٢٧٣٦، وقال الترمذي: هذا حديث حسن وقد روي من غير وجه عن النبي ﷺ، وقد تكلم بعضهم في الحارث الأعور.

(٢) السراج المنير شرح الجامع الصغير، جـ٤، صـ١٣٥

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: {لا يسألون الناس إلحافا} [البقرة: ٢٧٣] وكم الغنى، جـ٢، صـ١٢٤، رقم ١٤٧٦

(٤) ينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال، جـ٣، صـ٥١٧

(٥) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه جـ٤، صـ٢٢٠، رقم ٤٦٨١

الإنسانية لها مردودها في الحد من المشاكل الاجتماعية؛ لأن من أسباب هذه المشاكل الفشل في مواجهة الاندفاعات أو الرغبات الجامحة في الأفراد.(١)

بل إن علماء الاجتماع يؤكدون على ضرورة تفقد المعايير السائدة في المجتمع، ويبينون أن الطريقة التي يشعر على أساسها الأفراد بما ينبغي عليهم أن يفعلوه والنواحي التي يجب أن تتحقق في سلوك الأفراد تسمى في علم الاجتماع النظام المعياري.(٢)

ولأن تمثل هذا المعيار يحتاج إلى نفس متحققة بمعاني الإيمان ومتشعبة بشعبه فإن العلماء أعطونا علامات فارقة بين من انطلق في تعامله الاجتماعي من هذا المعيار حقا ومن انطلق منه ادعاء، وبينوا مدى تأثير ذلك على مسيرة العلاقات الاجتماعية، فذكروا أن " ما ينقمه العالم على الجاهل، والعدل على الفاسق فليس ذلك احتقارًا لعين المسلم، ولا لذاته، وإنما كراهية للجهل والفسق اللذين اتصف بهما، فمتى فارق الجاهل جهله، وباين الفاسق فسقه، كان ذلك معيار صدق الذي أبدى الشنان لأجل الله تعالى، بعوده ومراجعته إلى الاحتفال به والرفع لقدره."(٣)

ولأجل محورية المعايير التي أسسها الهدي النبوي وتأثيرها في الحياة الاجتماعية، فإننا وجدنا العلماء يدققون في هذه المعايير، ويبينون ما هو منها على سبيل العموم وما هو على سبيل الخصوص، فمثلا كون وضع القبول في الأرض علامة على محبة الله للعبد أمرًا قد نطقت به النصوص إلا أن هناك نصوصًا أخر تبين أن بعض من يحبهم الله تعالى قد لا يعرفهم الخلق تلك المعرفة؛ لذا أزال الأُبّي هذا التعارض الظاهري، فقال: "ولا يشكل على الحديث أن كثيرًا ممن يحبه الله لا يعرف فضلًا عن وضع القبول له

---

(١) ينظر: المشاكل الاجتماعية والسلوك الانحرافي، محمد عاطف غيث، دار المعرفة الجامعية، صـ١٥.

(٢) ينظر: المرجع السابق، صـ٩٧

(٣) مرقاة المفاتيح، جـ١، صـ١٠٧

بدليل خبر: «رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب» ؛ لأن المعنى إذا أحبه قد يضع، فالقضية مهملة في قوة الجزئية ؛ لأن " إذا وإن " إهمال في الشرطيات، لا كلية على ما تقرر في المنطق."(١)

ومن تلك الصور التي يؤسس فيها النبي ﷺ للعقلية المعيارية، ويظهر أثرها اجتماعيا ما جاء عن أبي سعيد الخدري قال: أراه عن النبي ﷺ قال: " «إذا أتيت على راع، فناده ثلاث مرار، فإن أجابك، وإلا فاشرب في غير أن تفسد، وإذا أتيت على حائط بستان، فناد صاحب البستان ثلاث مرات، فإن أجابك، وإلا فكل في أن لا تفسد»(٢)

لقد ذهب بعض العلماء إلى أن هذا الحديث يبيح للمار على زرع أو ماشية أن يأكل أو يشرب دون أن يحمل شيئا إذا ما استأذن ولم يجد أحدًا، وذهب آخرون إلى ترجيح ما ورد عن النهي عن أخذ شيء دون إذن، وجمع بعضهم بين الحديثين بأن حمل الإباحة على حالة الضرورة، أو علم المار بطيب نفس مالكه، أو إذا كان ابن سبيل(٣)، والشاهد معنا هنا هو المعيار الذي وضعه النبي ﷺ وهو عدم الإفساد، وتبني هذا المعيار ينبع من وعي ذاتي بالمصالح والمفاسد، وتشبع بالمكون الخلقي الإسلامي، وهو ما يمكن أن نسميه اجتماعيًا بالضبط الاجتماعي الداخلي.

" الضبط الداخلي هو الذي ينبع من داخل الإنسان كالقيم والعادات والتقاليد والمعايير الأخلاقية والاتجاهات."(٤)

---

(١) شرح الزرقاني على الموطأ جـ٤، صـ٥٥٢

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب التجارات، باب من مر على ماشية قوم، أو حائط هل يصيب منه، جـ٢، صـ٧٧١، رقم٢٣٠٠، وصححه الحاكم في المستدرك.

(٣) ينظر تفصيل المسألة في فتح الباري، جـ٥، صـ٩٠

(٤) الضبط الاجتماعي، تعريفه، أهميته، أنواعه، آلياته، نظرياته، دراسة سوسيولوجية تحليلية، مكتبة نحو علم اجتماعي تنويري، ٢٠١٨م، طـ١، صـ٨

لقد تبين مما سبق أن الهدي النبوي قد جعل من تأسيس العقلية المعيارية ضمانة من ضمانات استواء الحياة الاجتماعية بتشعباتها المختلفة.

إن الغزالي قد أعطانا مثالًا حسيا لضرورة تفقد المعايير في البناء الخلقي والتربوي، وبين أنه "كما أن كل مبرد لا يصلح لعلة سببها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص، ويختلف ذلك بالشدة والضعف والدوام وعدمه وبالكثرة والقلة ولا بد له من معيار يُعرف به مقدار النافع منه فإنه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد، فكذلك النقائض التي تُعالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار."(١)

وعقد دراز مقارنة مهمة بين الرؤية الفلسفية لأرسطو وبين ما قدمه الوحي الإلهي كتابًا وسنة فيما يتعلق بتحديد معايير الفضائل، وبين أن أرسطو يكتفي ببعض العموميات المجردة، وأنه يدلنا فقط على وسائل التحديد، فيقول: "يجب أن نظهر أعمالنا ومشاعرنا في اللحظة المناسبة، بناء على أسباب مقنعة، وحيث يوجد من يستحقها، ولغايات لائقة، وفي ظروف موافقة."(٢)

ومثَّل بالكرم، وذكر قول أرسطو "إن الشاق في الأمر هو أن أعرف: لمن يجب أن أعطي؟ وكم؟ ومتى؟ ولماذا؟ وبأية طريقة؟ ولذلك فإن الاستعمال الطيب للمال نادر. ويجب على من يهدف إلى الاعتدال أن يبدأ بالابتعاد عما يبعده عنه، وأن يكتفي بأقل قدر من الشرور" وهذه هي غاية التحديد.

ثم قال دراز: "أما القرآن، الذي تكمله تعاليم الرسول -ﷺ- فإنه يقدم على عكس ذلك لكل فضيلة مقياسًا حسيًّا، تسهل معرفته بدرجة كافية، وتنعدم بفضله تقريبًا فرص

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي الطوسي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، لبنان، جـ٣، صـ٦١.

(٢) دستور الأخلاق في القرآن الكريم، محمد بن عبد الله دراز، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٨م، طـ١٠، صـ٦٧٤.

الخطأ والالتباس. وحسبنا لكي نقتنع بذلك أن نأخذ مجموعة الأسئلة الأرسطية التي سبق أن ذكرناها، فنطرحها على الشريعة القرآنية، ولسوف نجد فيها إجابة محددة عن كل نقطة استفهام. بل وأكثر من ذلك، فإن هذه الشريعة –بعد أن وضعت لكل فضيلة مقياسها النوعي– قد دبرت إحكام مجموع الفضائل بالقاعدة العامة التي تأمرنا بالتوفيق بين واجباتنا، بعضها وبعض."[1]

إن فحوى ما سبق أن الإسلام وضع معايير واضحة غير مشوبة بأي من اللبس، ليس في إطار إجمالي فحسب، بل أجاب الإسلام عن الأسئلة التي شغلت الذهن الإنساني سواء أكان ذلك على صعيد الفكر الفلسفي أم على صعيد الفكر الإنساني العام، ويبقى استحضار هذه المعايير في مستجدات الحياة وطوارئها دلالة على الوعي بهذه المعايير.

(١) المرجع السابق، صـ٦٧٤

المطلب الرابع
السياق الاجتماعي لتشكيل العقلية المميزة

حين نتدبر الإشكاليات التي عانى منها الفكر الإنساني نجد أن الخلط بين الأمور، ورؤيتها في صورة ملتبسة كان إحدى هذه الإشكاليات؛ لذلك فإن التقويم الفكري الذي تبناه الإسلام أصَّل لضرورة تفعيل وظيفة القوة العاقلة المتمثلة في قدرتها على التمييز بين الأشياء، وإدراك الفوارق بين الأمور، والتنبه إلى الخصائص المميزة للماهيات.

"خاصية العقل التمييز بين مراتب المحبوبات والمكروهات بقوة العلم والتمييز، وإيثار أعلى المحبوبين على أدناهما، واحتمال أدنى المكروهين للتخلص من أعلاهما بقوة الصبر والثبات واليقين."(١)

ويقول العقاد: "ومن خصائص العقل أنه يتأمل فيما يدركه، ويُقلِّبه على وجوهه، ويستخرج منه بواطنه وأسراره، ويبني عليها نتائجه وأحكامه. وهذه الخصائص في جملتها تجمعها وتتصل بها ملكة الحكمة."(٢)

وقرر الغزالي أن الوظيفة المثلى للقوة المعرفية إنما هي درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحق والباطل في الاعتقادات، وبين الجميل والقبيح في الأفعال، فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة والحكمة رأس الأخلاق الحسنة.(٣)

إن الغزالي أعطانا إشارة إلى مدى الارتباط بين المفاهيم المعرفية والتي على رأسها مفهوم الحكمة والحياة الإنسانية سواء أكانت في الجانب القولي أم العملي.

---

(١) موسوعة فقه القلوب جـ٣صـ٢٦٧٧

(٢) التفكير فريضة إسلامية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، صـ٨

(٣) إحياء علوم الدين، جـ٣صـ٥٤

وذكر الرازي أن القدرة على التمييز تسمى علمًا؛ لأنها أحد فوائد العلم وثمراته.[١]

وإذا قرأنا هذه السمة العقلية في الإطار العام للتكريم الإلهي للإنسان وجدنا أن لها مدخلا فيها، وألمح الطبري إلى ذلك حين بين أن الخطاب القرآني يتوجه إلى أولي الألباب، "لأنهم هم أهل التمييز بين الحق والباطل، وأهل الفكر الصحيح والمعرفة بحقائق الأشياء التي بالعقول تُدرك وبالألباب تُفهم، ولم يجعل لغيرهم من أهل الجهل في الخطاب بذلك حظا، إذ كانوا أشباحًا كالأنعام، وصورًا كالبهائم، بل هم منها أضل سبيلًا."[٢]

وبين ابن القيم أن للإنسان حياتين الأولى بدنية والثانية روحية، وأنه كما أن الحياة البدنية يدرك فيها الإنسان النافع من الضار، ويفضل ما ينفع بدنه على ما يضره، فكذلك الحياة الروحية هي التي يميز من خلالها بين الحق والباطل والنافع من الضار في العلوم والأعمال والإرادات.[٣]

إن هذا الكلام يترك لنا العديد من الدلالات، ومنها:

١- أن البناء المعرفي الذي شكله الإسلام ليس بناء محصورًا في الإطار الحسي الذي يدرك من خلاله الإنسان خواص الأشياء باستعمال المنافذ المعرفية الحسية، بل إنه ينسجم مع الرؤية الإسلامية العامة من إقرارها بالإطارين المادي والروحي.

٢- أن الفقد الإنساني ليس فقدًا ماديا فحسب، بل إن أعظم صوره هو الفقد الناشئ عن تعطيل الملكات الفكرية والروحية والتي من أهمها التمييز بين الحق والباطل والخير والشر.

---

(١) تفسير الرازي جـ٤صـ٩٠

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة (٢٠٠٠ م)، ط١، جـ٤صـ١٦١

(٣) ينظر: التفسير القيم، تفسير القرآن الكريم، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤١٠هـ، ط١، صـ٢٩٩

وإذا جئنا إلى المجال الاجتماعي رأينا كيف أن التنبه إلى الفوارق بين الأمور وإدراك التمايز بينها كان إحدى الآليات المنهجية لانضباط هذا المجال، ومن صور ذلك ما جاء عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «لا تُنكح الأيّم حتى تُستأمر، ولا تُنكح البكر حتى تستأذن» قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها؟ قال: «أن تسكت»(١)

إن التفرقة هنا ليست مجرد تفرقة في آلية معرفة القبول من عدمه لكل من البكر والثيب، بل هو تنبيه إلى إدراك الفوارق بين الطباع الإنسانية في السياقات الحياتية المختلفة؛ لأن عدم الوعي بذلك يفوت المصالح ويحقق المفاسد.

"عبر للثيب بالاستئمار وللبكر بالاستئذان، فيؤخذ منه فرق بينهما من جهة أن الاستئمار يدل على تأكيد المشاورة وجعل الأمر إلى المستأمرة، ولهذا يحتاج الولي إلى صريح إذنها في العقد، فإذا صرحت بمنعه امتنع اتفاقًا والبكر بخلاف ذلك، والإذن دائر بين القول والسكوت بخلاف الأمر فإنه صريح في القول وإنما جعل السكوت إذنًا في حق البكر لأنها قد تستحي أن تفصح."(٢)

إن عدم إدراك الفوارق بين الأحوال الإنسانية المختلفة لا يمكن التعامل معه على أنه مجرد خلل فكري في إدراك قضية ما على غير وجهها، بل هو علة من علل الاضطراب الاجتماعي فاختلاف آلية الاستئذان بين الثيب والبكر ينبع بالأساس من اختلاف في الحالة الإنسانية بينهما، ذلك الاختلاف الذي يستلزم تصرفا مناسبا لكل حالة منهما يتحقق به صورة التكريم التي أرادها الإسلام لها من ناحية وحالة السواء الاجتماعي من ناحية أخرى.

ويبين المنهج النبوي أن من صور إدراك الفوارق والتمايز التنبه إلى خصائص ما

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها، جـ٧، صـ١٧، رقم ٥١٣٦.

(٢) فتح الباري، جـ٩، صـ١٩٢

خلق الله تعالى وعدم التنكر له؛ لذا جاء عن ابن عباس، أن النبي ﷺ قال: " لعن رسول الله ﷺ، المخنثين من الرجال، والمترجلات من النساء."(١)

قال الطبرى: "فيه من الفقه أنه لا يجوز للرجال التشبه بالنساء فى اللباس والزينة التي هي للنساء خاصة، ولا يجوز للنساء التشبه بالرجال فيما كان ذلك للرجال خاصة"(٢).

إن هذا الحديث يأتي في سياق تربوي، تلك التربية التي لا يمكن إنكار دورها في تكييف الإطار الخلقي.(٣)

إن ما مضى يؤكد لنا أن السياق الاجتماعي كان حاضرًا بقوة في تأصيل الهدي النبوي للبناء الفكري، وأن الاضطراب الاجتماعي إذا ما حللناه فإننا سنجد العلاقة المتجذرة بينه وبين الخلل الفكري.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب عن النبي ﷺ جـ٤، صـ١٤٤، رقم ٢٢٩٢، وقال محققه: حسن لغيره.

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال، جـ٩، صـ١٤٠

(٣) ينظر: أسس لإعادة البناء الاجتماعي برتراند رسل ترجمة إبراهيم يوسف النجار، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٧م، طـ١، صـ٣١

المطلب الخامس
السياق الاجتماعي للوعي بحقائق الأشياء وأصولها الجامعة

من أعظم مجالات إعمال العقل اتخاذه آلية من آليات التوصل إلى حقائق الأشياء، والنظر في بواطن الأمور، والنفاذ إلى أسرارها، وقد جعل ذلك القرطبي علامة الكمال العقلي فقال: "وأما كمال العقل فبه تُعرف حقائق الأمور."(١)

وحين كان مفهوم الغفلة مفهومًا يشير إلى تعطل بعض من وظائف التفكير فإنه قد عُرِّف بأنه "معنى يمنع الإنسان عن الوقوف على حقائق الأمور."(٢)

ويجعل ابن عاشور علة الكفر تصور الأشياء على غير حقائقها فيقول: "فالكفر خبث لأن أساسه الاعتقاد، الفاسد، فنفس صاحبه تتصور الأشياء على خلاف حقايقها، فلا جرم أن تأتي صاحبها بالأفعال على خلاف وجهها، ثم إن شرائع أهل الكفر تأمر بالمفاسد والضلالات وتصرف عن المصالح والهداية بسبب السلوك في طرائق الجهل وتقليب حقائق الأمور، وما من ضلالة إلا وهي تفضي بصاحبها إلى أخرى مثلها، والإيمان بخلاف ذلك."(٣)

إن معنى ما مضى أن التنبه إلى حقائق الأمور، وبذل الجهد العقلي للوقوف عليها ليس مجرد آلية لتحصيل معرفة من المعارف، بل إنه آلية تتعدد آثار تبنيها ما بين الإطار العقدي إلى الإطار الاجتماعي مرورًا بالإطار التشريعي.

وحين كان مفهوم "الذين أوتوا العلم" إحدى المفاهيم الإسلامية التي تنضم إلى

---

(١) تفسير القرطبي جـ١٤ صـ٣٥٤ (تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢)

(٢) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، جـ٢صـ١٨٨

(٣) التحرير والتنوير جـ٩صـ٣٤٣، (ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد. تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد. تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م)

مثيلاتها في تأسيس المنهجية المعرفية المنطلقة من الإسلام، فإن العلماء كشفوا عن العلاقة بين هذا المفهوم وبين التنبه إلى الحقائق والقدرة على التمييز بينها وبين ما يضادها من الأغلوطات والسفسطة، فذكر القاسمي أن من علامة الذين أوتوا العلم أنهم: "هم الذين رُزِقوا قوة التمييز بين البرهان القاطع الذي يستقرّ بالعقل في قرارة اليقين. وبين المغالطات وضروب السفسطة التي تطيش بالفهم، وتطير به مع الوهم، وتأخذ بالعقل تارة ذات الشمال وأخرى ذات اليمين.(١)

وإذا جئنا إلى المجال الاجتماعي سنجد أن النبي ﷺ كان حريصًا على ظهور الأشياء بحقائقها ونزع الالتباس الموقع في الوهم. ومن تلك الأحاديث المؤسسة لذلك ما جاء عن أسماء أن امرأة قالت: يا رسول الله إن لي ضرة فهل علي جناح إن تشبعت من زوجي غير الذي يعطيني؟ فقال: «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور.»(٢)

إن المراد بالمتشبع من يتزين بأكثر مما لديه، ويتكثر بذلك مثل المرأة تكون لها ضرة، فتسلك مسلك التشبع عندها بادعاء أن لها من الحظوة لدى زوجها بأكثر مما هو واقع لا تريد بذلك سوى أن تغيظ صاحبتها وتدخل الأذى عليها.(٣)

إن النبي ﷺ يعطينا هنا ملمحا فكريا ذا صبغة اجتماعية، وهو أن المحيط الاجتماعي لن يستقيم إذا لم تظهر الأشياء في حقائقها.

وحين نتدبر الأمراض الاجتماعية التي أشار إليها النبي ﷺ سنجد أن سوء الظن قد ذكر في مقدمتها، فعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ، قال: «إياكم والظن، فإن الظن

---

(١) تفسير القاسمي جـ٧صـ٢٦٥ (تفسير القاسمي، محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ، طـ١

(٢) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، جـ٧، صـ٣٥، رقم ٥٢١٩

(٣) ينظر: عمدة القاري، جـ٢٠، صـ٢٠٤(عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود بن أحمد بن بدر الدين العينى، دار إحياء التراث العربي، بيروت)

أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا.»[1]

وقد كشف العلماء عن الحكمة في البدء بهذه الآفة الفكرية الاجتماعية، فبينوا أن سوء الظن ينتج تأويلات فاسدة تقلب حقائق الأمور

" التباغض والتحاسد أصلهما سوء الظن، وذلك أن المباغض والمحاسد يتأول أفعال من يبغضه ويحسده على أسوأ التأويل، وقد أوجب الله تعالى أن يكون ظن المؤمن بالمؤمن حسنًا أبدًا إذ يقول: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ [النور: ١٢] فإذا جعل الله سوء الظن بالمؤمنين إفكا مبينًا فقد الزم أن يكون حسن الظن بهم صدقًا بينًا."[2]

إذاً، من نتائج الاستسلام لسوء الظن أنه يباعد بين العقلية المسلمة وبين التوصل إلى حقائق الأمور؛ لأنه يدخلها في دائرة لا تنتهي من التأويلات الفاسدة.

والمتدبر لدعاوى المشركين حول النبوة يجد أنها تنطلق من عمى عن الحقائق، فالمشركون جعلوا اتباع الضعفاء للأنبياء دليلًا على كونها بلا حجة.

قال تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [هود: ٢٧]

قال الماوردي: "احتجوا أيضًا في رد الرسالة يقولون: إن الأراذل هم أتباع لكل من دعاهم وأهل طاعة لكل متبوع، فليس في اتباع الأراذل إياك والضعفاء دلالة ثبوت رسالتك؛ إذ هم يتبعون بلا دليل ولا حجة وهم فروع وأتباع لغير، ولم يتبعك أحد من الأصول.

لكن يقال: إن هؤلاء الأراذل لما اتبعوا الرسول ولم يتبعوا الكبراء الذين معهم الأموال

(١) أخرجه أبو داود، جـ٤، صـ٢٨٠، رقم ٤٩١٧، وهو في الصحيحين بزيادة.

(٢) شرح البخاري لابن بطال جـ٩صـ٢٦١

والدنيا، ولم يكن في أيدي الرسل ذلك، ثم تركوا اتباع أولئك وفي أيديهم ما يدعوهم إليه واتبعوا الرسل دل أنهم إنما اتبعوا الرسل بالحجج والبراهين التي أقاموها عليهم أو نحوه"[١].

بقي أن نقرر أن من آليات إدراك الحقائق النظر إلى الفروع تحت أصولها وقراءة الجزئيات في سياقها الكلي، وهذا من أجلِ وظائف القوة العقلية لأن "القوة الباصرة لا تدرك الكليات والقوة العاقلة تدركها، ومدرك الكليات وهو القلب أشرف من مدرك الجزئيات."[٢]

بل إن ذلك ركن ركين من أركان التحقق بالعلم وحوز مقتضياته حتى قال الأصفهاني: "والصحيح: أن العلم في الحقيقة يتعلق بمعرفة الأصول المشتملة على الفروع، والمعاني الكلية المنطوية على الأجزاء كمعرفة جوهر الإنسان والفرس والقوانين التي يعرف بها حقيقة الشيء مثل أصول الضرب في الحساب، وأحوال الأبعاد والمقادير في الهندسة، والأصول المبني عليها المسائل الكثيرة في الفقه والكلام والنحو. فأما معرفة الجزئيات متعرية عن الأصول، فليس بعلم، ولا يقال للعارف بها عالم على الإطلاق، وإنما هو في معرفتها محاك محاكاة الببغاء للألفاظ."[٣]

إن هذه القيمة المعرفية التي قررها الإسلام أضحت ركنًا ركينًا من أركان التفكير العلمي الذي نهضت بسببه العلوم واتسع الأفق الحضاري.

" السعي المستمر إلى الحقيقة الذي تتميز به حياة العالم يؤدي به إلى اعتياد الصدق، وعدم التفريط في القيم المعنوية المرتبطة به مهما كان مستوى أخلاقية العالم

---

(١) تفسير الماوردي بتصرف جـ٦صـ١٢١

(٢) تفسير الرازي جـ٢٣ صـ٣٨٠

(٣) تفسير الراغب الأصفهاني جـ١صـ١٤٤ (تفسير الراغب الأصفهاني، محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ)

في حياته الخاصة."[١]

لقد تبين مما مضى كيف أن المنهج النبوي قد أراد تشكيل العقلية التي تعي حقائق الأشياء، وتستطيع التمييز بينها وبين الأباطيل والأوهام، وكيف أن المجال الاجتماعي مثَّل إحدى أبرز السياقات التي ظهر فيها هذا التأسيس.

إن التربية النبوية ليست مجرد توجيهات ينظر إليها المسلم نظرة جزئية منفصلة عن إطارها الكلي، بل إنها تمثل ما يمكن أن نسميه سلطانًا روحيا تنبع وفقًا له التصرفات الاجتماعية.

إن هذا السلطان الروحي أشار إليه لوبون باعتباره فيصلًا في أي تغيير اجتماعي، وجعله المقياس الحقيقي وليس مجرد الحالة الفكرية.[٢]

إن هذه نقطة فارقة في المنهجية الفكرية التي أسسها الهدي النبوي، وهو أنه جعلها منطوية تحت الإطار الروحي العام وجعلها مرتبطة بالإطار الخلقي مما جعل الناظر فيها يوقن أنه ليس أمام اجتهاد بشري يتجزأ نتاجه أو ربما تتناقض رؤاه، بل هو أمام هداية متكاملة ينبع فيها الفكري من الروحي، ويمتد إلى مسارات الحياة الإنسانية عامة.

(١) التفكير العلمي، صـ١٧٩

(٢) ينظر: السنن النفسية لتطور الأمم، غوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر مؤسسة هنداوي، ط١، ٢٠١٤م، صـ٢٠

الخـاتمة

أولا: نتائج البحث

١- كان من مفردات البناء العقلي الذي أسسه المنهج المعرفي النبوي التنبيه إلى قضية محورية وهي مراعاة الأولويات، والتنبه إلى مقادير الأشياء والوزن النسبي لكل أمر من الأمور حتى تصاغ عقلية تدرك مراتب الأهمية، فتقع التصرفات الاجتماعية وفقًا لهذا الأساس المعرفي.

٢- من بين صور مراعاة الأولويات جعلها آلية من آليات تضييق هوة الخلاف الاجتماعي، وسلوك مسلك مضاد لنوازع النفس الإنسانية الجانحة.

٣- الوعي بسلم الأولويات في المجال الاجتماعي يراعي الطبيعة البشرية، ويعد أداة من أدوات التعاطي الإيجابي معها ونزع ما قد يخرجها عن إطارها الذي تقتضيه توجيهات الشرع الحنيف.

٤- من أعظم أنواع التفكر التي تأسست في ثنايا المنهج النبوي التفكر في المآلات، وهو نوع من إعمال الملكة العقلية في تدبر الأفعال وما تسفر عنه وآلية محورية من آليات الوقاية الاجتماعية عامة والأسرية خاصة.

٥- استفادت العقلية المسلمة مما أصله الإسلام في الحث على النظر في المآلات وتدبر العواقب، وبرز ذلك في جميع السياقات ومنه السياق الأصولي.

٦- حين كانت محاسبة النفس إحدى المفاهيم التربوية التي تكررت في ثنايا الفكر التربوي الإسلامي فإن أساسًا من أسس هذه المحاسبة يقوم على النظر في مآلات الأمور وتدبر عواقبها.

٧- حين نطالع التقويم النبوي للمجال الاجتماعي نجد أن إيضاح المعايير الصحيحة كان إحدى مسارات هذا التقويم حتى كان النبي ﷺ يتخذ من الحوار وسيلة لتأسيس المعيارية الحقة وإبطال المعايير المتوهمة.

٨- الكلمات الجامعة التي قررها الوحي الإلهي تمثل معايير عامة وقواعد كلية يستحضرها العقل المسلم في تعاملاته الاجتماعية، ومن تلك الكلمات الجامعة كلمة (المعروف)

٩- حين كان التعامل الاجتماعي ثنائي المسلك أي ما بين المسلك الوجداني والمسلك الإجرائي العملي، فإن النبي ﷺ وضع معيارًا شاملًا لكليهما، وهو أن يكون هذا التعامل لوجه الله تعالى.

١٠- من أعظم وظائف القوة العاقلة قدرتها على التمييز بين الأشياء، وإدراك الفوارق بين الأمور حتى عُدَّ ذلك خاصة من خواص العقل عند من عرَّفه.

١١- من أعظم مجالات إعمال العقل اتخاذه آلية من آليات التوصل إلى حقائق الأشياء، والنظر في بواطن الأمور والنفاذ إلى أسرارها.

١٢- كان النبي ﷺ حريصًا على ظهور الأشياء بحقائقها، ونزع الالتباس الموقع في الوهم.

ثانيا: التوصيات

١- القيام بمزيد من الدراسات التي تأخذ على عاتقها استنباط الدلالات الاجتماعية من السنة النبوية.

٢- التواصل المعرفي بين تخصصي الدراسات الشرعية والدراسات الاجتماعية والإنسانية.

٣- إبراز الدلالات الاجتماعية في السنة النبوية من خلال المؤتمرات العلمية والورش والندوات والمناهج الدراسية في الأزهر الشريف.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم
٢- أثر السياق في فهم النص عند الإمام ابن دقيق العيد في شرح العمدة، عراك جبر شلال، مجلة الدراسات التربوية والعلمية، كلية التربية، الجامعة العراقية، العدد السابع، ٢٠٢٦م
٣- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي الطوسي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
٤- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، تحقيق: أحمد عزو، دار الكتاب العربي، ١٩٩٩م، ط١
٥- الإسلام في عصر العلم، محمد فريد وجهي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
٦- الإسلام وثقافة الإنسان، سميح عاطف الزين، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٣م، ط٤
٧- الإفصاح عن معاني الصحاح، يحيى بن هبيرة الذهلي الشيبانيّ، أبو المظفر، عون الدين، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن، ١٤١٧هـ
٨- الإنسان في القرآن عباس العقاد، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٤م
٩- البحر المحيط في أصول الفقه، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، دار الكتبي، ١٩٩٤م، ط١
١٠- تحرير القواعد المنطقية، قطب الدين محمد بن محمد الرازي، منشورات بيدار، ١٤٢٦هـ، ط٢
١١- تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد. تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.
١٢- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٣- التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، تحقيق: ضبطه وصححه مجموعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ١٩٨٣م، ط١

١٤- التغير الاجتماعي، أحمد زايد، اعتماد علام، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٠م، ط٢

١٥- تفسير القاسمي، محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ، ط١

١٦- تفسير القرآن الكريم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤١٠هـ، ط١

١٧- تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢

١٨- تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥م، ط١

١٩- التفكير فريضة إسلامية، عباس العقاد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

٢٠- التمثيل والمحاضرة، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، ١٩٨١م، ط٢

٢١- التيسير بشرح الجامع الصغير، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ١٩٨٨م، ط٣

٢٢- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠م، ط١

٢٣- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠١م، ط٧

٢٤- دستور الأخلاق في القرآن، محمد بن عبد الله دراز، مؤسسة الرسالة، ط١٠، ١٩٩٨م

٢٥- الذريعة إلى مكارم الشريعة، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٨٠م

٢٦- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٧- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي، مطبعة بولاق (الأميرية)، القاهرة، ١٢٨٥هـ

٢٨- سنن ابن ماجه، ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.

٢٩- سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، وآخرون. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٧٥م، ط٢

٣٠- السنن النفسية لتطور الأمم، غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٤م، ط١

٣١- السياق الاجتماعي وأهميته في فهم النص القرآني وتوجيه دلالاته، حبيبة زغلامي، عبد الناصر بوعلي، مجلة الموروث، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان الجزائر، المجلد

التاسع، العدد الثاني، ديسمبر (٢٠٢١م)
٣٢- شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري الأزهري، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٣م، ط١
٣٣- شرح صحيح البخارى لابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، ٢٠٠٣م، ط٢
٣٤- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
٣٥- فتح الباري شرح صحيح البخاري، العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩هـ.
٣٦- فيض القدير شرح الجامع الصغير، زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي، المكتبة التجارية الكبرى. مصر (١٣٥٦هـ)، ط١
٣٧- كشف المشكل من حديث الصحيحين: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: علي حسين البواب، دار الوطن، الرياض.
٣٨- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٣٩- الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، محمد بن يوسف بن علي بن سعيد، شمس الدين الكرماني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان،١٩٨١م، ط٢
٤٠- الكوكب الوهَّاج والرَّوض البَهَّاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، محمد الأمين بن عبد الله الأُرَمي العَلَوي الهَرَري الشافعي، مراجعة: لجنة من العلماء هاشم محمد علي مهدي، مكة المكرمة، دار المنهاج – دار طوق النجاة، ٢٠٠٩م، ط١

٤١- معالم السنن، وهو شرح سنن أبي داود، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي، المطبعة العلمية، حلب، ١٩٣٢م، ط١
٤٢- المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٨٣م
٤٣- معجم المصطلحات التربوية والنفسية، حسن شحاته، زينب النجار، مراجعة حامد عمار، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٣م، ط١
٤٤- معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، أحمد زكي بدوي، مكتبة لبنان، بيروت.
٤٥- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، اعتنى به: محمد عوض، فاطمة محمد، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١م، ط١
٤٦- مفاتيح العيب أو التفسير الكبير، الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ، ط٣
٤٧- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٢هـ، ط٢

فهرس المحتويات

ملخص البحث ١٩٨
المقدمة ٢٠٢
التمهيد: التعريف بالمفردات الرئيسة في البحث ٢٠٧
المطلب الأول: السياق الاجتماعي للوعي بالأولويات والوزن النسبي للأشياء ٢١١
المطلب الثاني: السياق الاجتماعي لتدبر المآلات ٢٢٦
المطلب الثالث: السياق الاجتماعي لتشكيل العقلية المعيارية ٢٣٥
المطلب الرابع: السياق الاجتماعي لتشكيل العقلية المميِّزة ٢٤٤
المطلب الخامس: السياق الاجتماعي للوعي بحقائق الأشياء وأصولها الجامعة ٢٤٨
الخاتمة ٢٥٣
المصادر والمراجع ٢٥٥
فهرس المحتويات ٢٦٠